

خواطر

على درب النجاح والتذكرة

(الجزء الأول)

(مقالات صحفيه نشرت بالصحف المصريه)

بقلم فضيلة الشيف

أحمد إسماعيل الغشني

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المُقدّمة

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِي تَقْلِبِ الْأَيَّامِ عِبْرَةً لِلْمُعْتَرِّينَ، وَفِي سِيرِ الصَّالِحِينَ مَنَارَةً لِلسَّالِكِينَ، وَجَعَلَ تَرْكِيَّةَ النُّفُوسِ سَبِيلَ الْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى إِمَامِ الْمُتَّقِينَ، وَقُدْوَةُ النَّاجِحِينَ، سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ، الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ لِيُتَمَّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَيَأْخُذُ بِأَيْدِيِّ الْخَلْقِ إِلَى رَبِّ الْخَلَاقِ، وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ الطَّاهِرِينَ، وَصَاحِبِهِ الْغُرُّ الْمَتَّايمِينَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

وَبَعْدُ: فَإِنَّا نَعِيشُ فِي زَمَنٍ تَسَارَعْتُ فِيهِ الْأَخْدَاثُ، وَتَشَعَّبَتْ بِالنَّاسِ السُّبُلُ، وَطَغَتِ الْمَادِيَّةُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَنَاجِي الْحَيَاةِ، حَتَّى بَاتَ الْإِنْسَانُ يَلْهُثُ خَلْفَ النَّجَاحِ الدُّنْيَوِيِّ، وَقَدْ يَغْفُلُ فِي خِصَمٍ ذَلِكَ عَنْ غِذَاءِ رُوحِهِ وَسَلَامَةِ قَلْبِهِ.

وَمِنْ هُنَّا، جَاءَتْ هَذِهِ "الْحَوَاطِرُ"؛ لِتَكُونَ مَحَظَّةً يُلْتَقِطُ فِيهَا الْمُؤْمِنُ أَنْقَاسَهُ، وَيُعِيدُ فِيهَا تَرْتِيبَ أَوْلَوِيَّاتِهِ. إِنَّهَا مُحاوَلَةٌ لِلْجَمْعِ بَيْنَ الْحُسْنَيَّيْنِ: "نَجَاحُ السَّعْيِ فِي الْأَرْضِ" بِالْأَخْدَى بِأَسْبَابِ التَّخْطِيطِ وَإِدَارَةِ الْوَقْتِ وَالْتَّقَوْلِ، وَ"فَلَاحُ الرُّوحُ فِي السَّمَاءِ" عَبْرَ تَرْكِيَّةِ الْقَلْبِ، وَتَضْرِيحِ الْعِقِيدةِ، وَالتَّعْلُقِ بِجَنَابِ النُّبُوَّةِ الشَّرِيقَةِ.

فِي هَذَا الْكِتَابِ، نَطْوُفُ مَعًا فِي رِيَاضِ مُتَنَوِّعَةٍ؛ فَتَارَةً نَجْلِسُ فِي حَضْرَةِ الْحَبِيبِ الْمُصْطَطَفِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَتَلَمَّسُ جَمَالَ أَخْلَاقِهِ وَمُعْجَزَاتِهِ، وَتَارَةً نَغُوصُ فِي أَعْمَاقِ النَّفْسِ لِنُعَالِجَ أَمْرَاضَهَا مِنْ قَلَّقٍ وَيَأْسٍ، وَتَارَةً نَضَعُ أَقْدَامَنَا عَلَى سُلْمِ النَّجَاحِ الْعَمَلِيِّ مُسْتَلْهِمِينَ ذَلِكَ مِنْ قِيمَنَا الإِسْلَامِيَّةِ الرَّصِينَةِ.

لَسْتُ فِي هَذِهِ السُّطُورِ إِلَّا نَاصِحًا أَمِينًا، وَأَخَا مُحِبًّا، يَرْجُو لِنَفْسِهِ وَلِإِخْرَانِهِ النَّجَاهَ وَالْفَوْزَ. فَمَا كَانَ فِيهِ مِنْ صَوَابٍ فَمِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا كَانَ مِنْ رَلَلٍ فَمِنْ نَفْسِي وَالشَّيْطَانِ.

أَسْأَلُ اللَّهَ الْعَلِيَّ الْقَدِيرَ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا الْعَمَلَ خَالِصًا لِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كُلُّ مَنْ قَرَأَهُ، وَأَنْ يَجْعَلَهُ ذُخْرًا لَنَا يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونٌ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلْبٍ سَلِيمٍ.

وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

الشيخ / أحمد إسماعيل الفشنـي

القاهرـه في ١١-١٢-٢٥٢٠

الباب الأول

في رحاب النبوة وآل البيت والصحابية

(محبّه.. وشوق.. وافتداع)

١. مؤلد الثور

الحمد لله رب العالمين، وصلوة وسلاماً على سيدى رسول الله وآلها وصحبه ومن والاه
واتبع هداه، وبعد؛

أيها السادة الكرام: إن من أعظم الأيام في تاريخ البشرية يوم ولد فيه خير الأنام، سيدنا
محمد ﷺ، ذلك الميلاد الذي لم يكن كسائر الميلادات، بل كان ميلاد النور، ومبعد
الرحمة، وفجراً جديداً أشرق على الدنيا فأخرجها من ظلمات الجهل إلى أنوار الهدایة.

لقد شاء الله تعالى أن يكون مولد النبي ﷺ في عام الفيل، العام الذي حفظ الله فيه بيته
الحرام من بطش الأعداء، وكأنها كانت إرهاصات وإشارات ربانية أن حدثاً عظيماً سيغير
وجه الأرض ويبدل مسار التاريخ. يقول الله تعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنباء: ٧٠]، فجاء النبي ﷺ حقاً رحمة عامة
شملت القريب والبعيد، والإنس والجن، بل والكون كله.

أيها السادة الكرام: لقد ولد الحبيب المصطفى ﷺ يتيمًا، فعاش حياة مليئة بالابتلاءات
لكن رعاها الله بعنائه، فشبّ على الصدق والأمانة حتى لقب بالصادق الأمين، وكان ذلك
إعداداً له لحمل الأمانة الكبرى: أمانة الوحي والرسالة. ومع أول لحظة نزل فيها جبريل
عليه السلام بالوحي، بدأ عهد جديد للبشرية، عهد يرفع الظلم، ويهدم الوثنية، وينشر
العدل والمساواة، فكان ﷺ كما وصفه ربه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا
عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبه: ١٢٨].

ولقد تجلت رحمته ﷺ في مواقفه العظيمة، فعندما جاءه الأعرابي فجذبه بردائه حتى أثر
في عنقه، ما كان منه إلا أن تبسم في وجهه وأمر له بعطاء. وعندما جاءه رجل يطلبه ديناً
فغلظ عليه في الكلام، قال ﷺ لأصحابه: "دعوه فإن لصاحب الحق مقالاً". مما أروعها
من رحمة تتجلى في قلب قائد لم يعرف التاريخ له مثيلاً.

وكذلك كان ﷺ أعدل الناس، لا يفرق بين قريب وبعيد في الحكم، فقد قال في شأن المرأة
المخزومية التي سرقت: "والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". فكان
العدل عنده أصلًا راسخًا لا تحركه عاطفة القرابة ولا مصالح الدنيا.

أيها السادة الكرام: لقد عظُم السلف الصالح رضي الله عنهم شأن النبي ﷺ وذكره، حتى
قال سيدنا العباس عم النبي ﷺ في مدحه:

وأنَتْ لِمَا وُلِدْتَ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ *** وَضَاءَتِ بِنُورِكَ الْأَفْقُ

فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الْصَّبَيْءِ وَفِي النُّورِ *** وَسُبْلِ الرَّشَادِ تَخْرِقُ

وكان سيدنا حسان بن ثابت رضي الله عنه يقول:

"وأحسن منك لم تر قط عيني، وأجمل منك لم تلد النساء،

خُلقت مِنْ كُلِّ عِيبٍ، كَأَنَّكَ قدْ خُلِقتَ كَمَا تَشَاءَ".

وقال الإمام السهيلي رحمه الله: "وما أشرقت الدنيا بيوم أعظم من يوم مولده ﷺ، ولا
عرف التاريخ حادثاً أكرم على الله من بعثة هذا النبي الكريم".

فيما حسرتنا إن مرت بنا هذه الذكرى العظيمة ونحن غافلون عن صاحبها، منشغلون بالدنيا
عما جاء من أجله؛ فإن مولده ﷺ لم يكن للفرح المجرد، وإنما ليكون دافعاً لنا لنقتدي
بسنته، ونسير على نهجه، ونحمل رسالته للعالمين.

أيها السادة الكرام: فلنجعل من ذكرى المولد النبوى الشريف محطة للتزود بالإيمان،
وتتجديداً للعهد مع سيد الأنام ﷺ، ولنكثر فيها من الصلاة والسلام عليه، امثالة لأمر الله
تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا
تَسْلِيْمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

فاللهم صلي وسلم وبارك على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق ناصر الحق
بالحق ولا هادي إلى صراط المستقيم وعلى آله حق قدره ومقدار هذه العظيم

فهنيئاً لمن جعل هذه الذكرى باباً للطاعة، وسبيلاً للاتباع، وتذكرةً بواجب الاقتداء بخير
من مشي على الأرض ﷺ. وبالله تعالى التوفيق

٢. حَازَ الْجَمَالَ فَمَا أَبْهَى مُحَيَاهُ ﷺ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْخَلْقَ فَأَحْسَنَ خَلْقَهُ، وَاصْطَفَى مِنْ بَيْنِهِمْ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّداً
فَجَعَلَهُ أَجْمَلَهُمْ وَأَكْمَلَهُمْ خُلُقاً. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَكْمَلَانِ الْأَكْمَلَانِ عَلَى مَنْ حَازَ الْجَمَالَ
كُلَّهُ، فَكَانَ وَجْهُهُ أَصْوَأَ مِنَ الْقَمَرِ، وَكَلَامُهُ أَحْلَى مِنَ الشَّهْدِ، وَخُلُقُهُ أَعْظَمُ مَا وَصَفَ الْبَشَرُ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْغُرُّ الْمَيَامِينِ وَمَنْ تَبَعَ هَذَا وَأَفْتَفَ أَثْرَهُ.

أَيُّهَا الْمُحِبُّونَ لِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ، أَيُّهَا الْمُسْتَأْفِونَ لِرُؤْيَةِ طَلْعَتِهِ الْبَهِيَّةِ: إِنَّ الْحَدِيثَ عَنْ جَمَالِ سَيِّدِنَا النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ مُجَرَّدَ وَصْفٍ لِمَحَاسِنِهِ الظَّاهِرَةِ، بَلْ هُوَ عِبَادَةٌ نَتَقَرَّبُ بِهَا إِلَى اللَّهِ، وَغِدَاءٌ لِلْأَرْوَاحِ حَتَّى يَزِيدُنَا حُبًّا لَهُ وَشُوقًا إِلَيْهِ. فَقَدْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كَمَالِ الصِّفَاتِ وَجَلَالِ الْهَيْئَةِ مَا لَمْ يَجْتَمِعْ لِأَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ. وَكَانَ جَمَالُهُ تَوْعِينٌ: جَمَالًا خَلْقِيًّا يَأْسِرُ الْأَبْصَارَ، وَجَمَالًا خَلْقِيًّا يَسِّيِّ الْفُلُوبَ وَالْأَرْوَاحَ.

أَمَّا عَنْ جَمَالِهِ الْخَلْقِيِّ، فَقَدْ عَجَزَ الْوَاصِفُونَ عَنْ إِعْطَائِهِ حَقَّهُ، وَكَانَتْ أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ كَالنُّجُومِ تُحَاوِلُ أَنْ تَصِفَ شَمْسَ النَّهَارِ، وَإِلَيْكُمْ بَعْضًا مِنْ شَهَادَاتِهِمْ:

* يَقُولُ سَيِّدُنَا الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كَانَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُمْ خَلْقًا". وَسُئِلَ مَرَّةً: "أَكَانَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِثْلَ السَّيْفِ؟" قَالَ: "لَا، بَلْ مِثْلَ الْقَمَرِ".

* وَيَقُولُ سَيِّدُنَا جَابِرُ بْنُ سَمْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "رَأَيْتُ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِصْحَيَانٍ (مُقْمِرَة)، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهِ وَإِلَى الْقَمَرِ، فَلَهُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ".

* وَكَانَ وَجْهُهُ السَّرِيفُ أَبْيَضَ مُشَرِّبًا بِحُمْرَةٍ، كَانَمَا صَيَغَ مِنْ فِضَّةٍ، يَتَلَاءِلُ نُورًا. يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَانَ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ".

* وَأَمَّا عَيْنَاهُ الشَّرِيفَتَانِ، فَكَانَتَا شَدِيدَيِّ السَّوَادِ فِي شِدَّةِ الْبَيَاضِ، أَكْحَلَ دُونَ كُحْلٍ، طَوِيلَتِيِّ الْأَهْدَابِ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْكَ أَخْذَ بِمَجَامِعِ قَلْبِكَ.

* وَكَانَ ﷺ وَاسِعُ الْفَمِ، جَمِيلَهُ، أَشْبَبَ الْأَسْنَانِ (أَيْ فِيهَا رِفَّةٌ وَتَحْدِيدُ)، مُفَلَّجَهَا، إِذَا تَكَلَّمَ رُؤَيَ كَالنُّورِ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ثَنَائِاهُ.

* وَكَانَ طَيْبَ الرَّائِحةِ بِأَصْلِ خَلْقَتِهِ، يَقُولُ سَيِّدُنَا أَنْسُ بْنُ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "مَا شَمَمْتُ عَنْبَرًا قُطُّ، وَلَا مِسْكَأً، وَلَا شَيْئًا أَطْيَبَ مِنْ رِيحِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ".

* وَتَصِفُهُ السَّيِّدَةُ أُمُّ مَعْبَدِ الْخَرَاعِيَّةُ لِرِزْوِجَهَا فَتَقُولُ: "أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْلَاهُ وَأَحْسَنَهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلُوُ الْمَنْطِقِ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَدْرٌ (أَيْ لَا قَلِيلٌ وَلَا كَثِيرٌ)، كَانَ مَنْطِقَهُ حَرَازُ نَظِمٍ يَتَحَدَّرُنَّ".

هَذَا الْجَمَالُ الظَّاهِرُ، لَمْ يَكُنْ إِلَّا عُنْوَانًا لِجَمَالٍ بَاطِنٍ أَعْظَمَ وَأَكْمَلَ. فَجَمَالُ الْخُلُقِ هُوَ الْأَصْلُ، وَقَدْ شَهَدَ لَهُ بِهِ رَبُّهُ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ فَقَالَ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (الْقَلْمَ: ٤). وَمِنْ بَعْدِ أَخْلَاقِهِ الْعَظِيمَةِ نَعْتَرِفُ:

* رَحْمَتُهُ الَّتِي وَسَعَتِ الْعَالَمِينَ: فَلَمْ تَكُنْ رَحْمَتُهُ مَقْصُورَةً عَلَىٰ أَصْحَابِهِ، بَلْ شَمِلَتْ أَعْدَاءَهُ، وَشَمِلَتِ الْإِنْسَانَ وَالْحَيَوانَ وَالْجَمَادَ. هُوَ الَّذِي قَالَ لَهُ رَبُّهُ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾. وَحِينَ آذَاهُ أَهْلُ الطَّائِفِ، قَالَ قَوْلَتُهُ الرَّحِيمَةُ: "بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا".

* تَوَاضُعُهُ الْجَمْعُ وَهُوَ سَيِّدُ الْخَلْقِ: كَانَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ تَوْبَهُ، وَيَحْلُبُ شَاتَهُ، وَيَكُونُ فِي مِهْنَةٍ أَهْلِهِ.

* حَلْمُهُ الَّذِي يَسِيقُ غَضِيبَهُ: وَمِنْ أَعْظَمِ الْقِصَصِ قِصَّةُ الْأَعْرَابِيِّ الَّذِي جَذَبَهُ مِنْ رِدَائِهِ حَتَّىٰ أَثَرَ فِي عُنْقِهِ الشَّرِيفِ، فَمَا زَادَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَىٰ أَنْ التَّفَتَ إِلَيْهِ فَضَحِكَ، ثُمَّ أَمْرَ لَهُ بِعَطَاءِ.

* حَيَاوُهُ الشَّدِيدُ: يَقُولُ سَيِّدُنَا أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "كَانَ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ ﷺ أَشَدَّ حَيَاةً مِنَ الْعَدْرَاءِ فِي خَدْرِهَا، وَكَانَ إِذَا كَرَهَ شَيْئًا عَرَفَنَا فِي وَجْهِهِ".

* شَجَاعَتُهُ الَّتِي لَا تُضَاهِي: يَقُولُ سَيِّدُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ أَبْطَالِ الْأُمَّةِ: "كُنَّا إِذَا احْمَرَ الْبَأْسُ وَلَقِيَ الْقَوْمَ الْقَوْمَ، اتَّقِنَا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ".

* أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: لِيَكُنَّ نَنَالَ شَرْفَ الْقُرْبِ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ وَنَسْتَنِيرَ بِهِ، عَلَيْنَا أَنْ:

* نُكِثِرَ مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ: فَكُلُّمَا صَلَّيْنَا عَلَيْهِ، زَادَنَا اللَّهُ قُرْبًا مِنْهُ وَنُورًا مِنْ نُورِهِ.

* نَقْرَأُ فِي شَمَائِلِهِ: فَإِنَّ قِرَاءَةَ سِيرَتِهِ وَصِفَاتِهِ تُحِيِّ القُلُوبَ وَتُعَلِّقُهَا بِهِ.

* نَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِ: فَالْحُبُّ الْحَقِيقِيُّ هُوَ الْإِلَتَّبَاعُ، وَمَنْ أَحَبَّ سَيِّدَنَا النَّبِيِّ ﷺ صِدْقًا، سَعَى جَاهِدًا لِيَتَشَبَّهَ بِهِ فِي رَحْمَتِهِ وَحَيَايَهِ وَشَجَاعَتِهِ.

إِنَّ جَمَالَ سَيِّدِنَا النَّبِيِّ ﷺ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَمِنْحَةٌ مِنْ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ. فَاللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنَتْ خَلْقَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ فَحَسِّنْ أَخْلَاقَنَا، وَأَرْزُقْنَا اتِّبَاعَهُ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَاحْسِنْنَا فِي زُرْمَتِهِ، وَاسْقِنَا مِنْ يَدِهِ الشَّرِيفَةِ شَرِيفَةً هَنِيَّةً لَا نَظِمَّ بَعْدَهَا أَبْدًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٣. احتفال بحب النبي: رؤية شرعية للمولد النبوي الشريف

الحمد لله رب العالمين، وصلاة وسلاما على سيدنا رسول الله وآلها وصحبه ومن والاه
وتابع هداه.

في كل عام، يهل علينا شهر ربيع الأول، ومعه تتجدد القلوب شوقاً وحباً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآلها وسلم. يحتفل المسلمون في شتى بقاع الأرض بذكرى مولده الشريف، وهو احتفال يثير العديد من التساؤلات حول حكمه الشرعي. وقد أوضحت الكثير من الآراء الشرعية أن الاحتفال بالمولد النبوي هو أمر مشروعٌ ومستحبٌ.

ولبيان حكم الاحتفال بالمولد النبوي أقول: ان الاحتفال بالمولد النبوي هو من الأمور التي تدخل في إطار "المندوبات"، أي الأعمال المستحبة التي يُثاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها. هذا الاحتفال ليس مجرد عادة، بل هو تعبير عن الحب والتقدير للرسول الكريم. وأرى أن الاحتفال يندرج تحت مظلة الفرح والابتهاج بنعمة إرسال النبي، وهو أمر حث عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: "قُلْ بِقَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِدِلَكَ فَلَيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" (يونس: ٥٨).

كيف يكون الاحتفال الصحيح؟

الاحتفال بالمولد النبوي ليس مجرد شراء الحلوي أو إقامة الولائم، وإنما هو فرصة للتذكير بسيرة النبي العطرة وأخلاقه الرفيعة. ومن السلوكيات المستحبة للاحتفال:

* كثرة الصلاة على النبي: يعتبر هذا الفعل من أفضل القراءات، فبها تتجدد العهود والمحبة مع النبي.

* قراءة السيرة النبوية: لنتعلم من قصص حياته وشمائله، لنقتدي به في كل شأن من شؤوننا.

* إطعام الطعام والصدقات: وهو عمل صالح يعكس كرم أخلاق المسلمين وحرصهم على مساعدة المحتاجين.

* إقامة المجالس الدينية: للاستماع إلى الدروس والمواعظ والقصائد التي تُبيّن فضائل النبي وتُشرح سيرته وترشد إلى أخلاقه.

محبة السلف الصالح وتقديرهم للنبي : لم يكن الاحتفال بالمولد قاصراً على العصور المتأخرة، بل كان الحب للنبي متجلزاً في قلوب الصحابة والتابعين. ومن هذه النماذج المضيئة التي استغلت أوقاتها في ذكر النبي وتعظيمه:

* الحسن البصري: كان يحث الناس على استغلال أوقاتهم في الطاعة والعبادة. ويقول: "يا ابن آدم، إنما أنت أيام، فإذا ذهب يومك ذهب بعضك". وكان يقول: "يا ابن آدم، نهارك ضيفك، فأحسن إليه؛ فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أساءت إليه ارتحل بذمك".

* عروة بن الزبير: كان يجمع الناس في بيته ليحدثهم عن سيرة النبي، ويُظهر لهم معجزاته وموافقه العظيمة، فيُشيع فيهم الشوق والحب للنبي.

* وأحد السلف الصالح: نقل عنه أنه كان يقول: "ما ندمت على شيء ندمي على يوم انقضى نقص في أجلي ولم يزدد فيه عملي".

هذه النماذج العظيمة من السلف الصالح لم تكن تضيع أوقاتها، بل كانت تجعل ذكر النبي وسيرته جزءاً من حياتها اليومية، حتى في أبسط الأمور. فقد نُقل عن بعضهم أنه كان يأكل الفتات بدلاً من الخبز، ولما سُئل عن السبب، قال: "لأن بين أكل الخبز وشرب الفتات مقدار قراءة ٥٠ آية من القرآن الكريم". وهذا يدل على مدى حرصهم على استغلال كل لحظة في طاعة الله.

البوصيري والمولد النبوى: وقد أبدع الشعراء في مدح النبي، ومن أبرزهم الإمام البوصيري في "البردة"، حيث عبر عن حبه وشوقه له بأروع الكلمات، ومنها ما قاله في وصف المولد الشريف:

* "يَوْمٌ تَفَرَّسَ فِيهِ الْفَرْسُ أَنَّهُمْ ... قَدْ أَنْذِرُوا بِحُلُولِ الْبُؤْسِ وَالنَّقْمِ" (اليوم الذي ولد فيه النبي، هو يوم أدرك فيه الفرس أن الشر قد أتاهم).

* "وَحَاجَرْتُ سَاوَةً خَوَى فِيهَا الْحَصَى... وَجَاءَتْ فِرِيَةٌ بِالْفَتْحِ وَالْكَرَمِ" (والذي حدث فيه أن بحيرة ساوية قد جفت، وأن الحق قد جاء والكرامة).

وفي الختام، يظل الاحتفال بالمولد النبوى فرصة لتجديد الروابط الروحية مع النبي الكريم، ليس من خلال الشعائر فقط، وإنما بالتمسك بسنته وأخلاقه في حياتنا اليومية. إنه احتفال بالرحمة المهدأة، وبالنور الذي أضاء ظلمات الجهل، وبالهدي الذي قوى اعوجاج النفوس، صلي الله على حضرته وآل بيته أجمعين.

٤. كِتَابُ الْكَوْنِ الْمَفْتُوحُ: مُعْجِزَاتُ سَيِّدِنَا الرَّسُولِ ﷺ.
الحمدُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي أَيَّدَ أَنْبِياءَهُ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْمَعْجَزَاتِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّنَا وَحْبَبِنَا سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، خَيْرٌ مَنْ أُرْسِلَ بِالآيَاتِ وَالْبُرْهَانِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَطْهَارِ.

أيها السادة الكرام : إن النُّفوس البشريَّة مُفطورة على طَلْب الدَّلِيل والرُّكون إلى البرهان . ولما كان العقل البشري لا يستطيع إدراك حقيقة الولي بمجرد الفكير ، كان من كرم الله عز وجل على أصنفيا خلقه من الأنبياء والمرسلين ، أن آيدهم بخوارق للعادة ، لا تصدر إلا من المؤيد بالولي والإذن الإلهي ، وهي التي نسميتها "المعجزات" . وهذه المعجزات ليست مجردة قصص لتروى ، بل هي مدارج لليقين وبراهين ساطعة تدل على صدق سيدنا رسول الله ﷺ ، وترسو بالإيمان في قلوب أهل البصائر .

أولاً: معجزة النور الحالدة (القرآن العظيم) لا شك أن أعظم معجزات سيدنا رسول الله ﷺ ، وأخلدها أثراً وبرهاناً هو هذا الكتاب المبين؛ القرآن الكريم . وفي هذا تفوق وكمال لدعوه نبينا، فبينما كانت معجزات الأنبياء السابقين حسيةً ومؤقتةً ، كانت معجزته عقليةً وحالدةً .

إن وجه الإعجاز في القرآن يتجلّى في محاور تؤكد أنَّه ليس من جهد بشيرٍ * الإعجاز اللغوي والبلاغي: فهو تحدٌ لأفصح وأبلغ العرب في عصرِهم أن يأتوا بِسُورَةٍ مِثله .

* الإعجاز الشرعي: بما تضمنه من علوم وأخبار وحكم ، وقواعد وأصول لاحكام العدل والرحمة ، صالحة لكل زمان ومكان .

* الإعجاز الغيبي: وهو ما أخبر به القرآن من أحداث وقعت في الماضي أو ستقع في المستقبل ، وقد تحققت كما أخبر بها .

وقد أشار الإمام البوصيري رحمة الله في الباب الخامس من بردته إلى عموم هذه المعجزات وبدائها ، فقال:

دعني ووضفي آياتٍ له ظهرت *** ظهور نار القرى ليلاً على عالم
فالمعجزة ظاهرة كظهور نار الكرم التي يهتدى بها السائر ليلاً .
ثانياً: البراهين الحسية (تضُرُف بقدرة الله)

لم تقتصر البراهين على القرآن فحسب ، بل شهدت له الطبيعة الجامدة والمخلوقات الحية ، والمنهج في تلقي هذه القصص هو الإيمان بأنَّ الله عز وجل هو خالق السبب والمسبب ، وأنه أجرى هذه الخوارق على يد نبيه تأييداً لدعوته .

* معجزة الشقاق القمر:

وهي من اعظم آيات الله تعالى لـ سيدنا رسول الله ﷺ، وقد طلبها الكفار متعنتين، فشقّ الله تعالى القمر فلقتين، فلقة فوق جبل وفلقة أخرى، إذ قال القرآن: ﴿أَفْتَرَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ﴾. وهذه الآية العظمى هي برهان قاطع بأن الكون بأسره مسخٌ بأمر النبوة.

* معجزة نبع الماء من كفة الشريفة:

تتجلى رحمة الله عز وجل ونصرته لنبيه في مواقف الضيق. ففي صلح الحديبية، أصاب الصحابة الكرام عطش شديد، وكان عددهم كبيراً. فإذا بسيدنا رسول الله ﷺ يضع كفه الشريفة في إناء، فوجد الصحابة أن الماء يتبع ويتدفق من بين أصابعه الشريفة، حتى شرب القوم كلهم وتوضؤوا. هذه القصة رواها البخاري ومسلم، وهي من أصح الدلائل.

* معجزة تكثير الطعام:

كما أن الماء نبع، كذلك الطعام تبارك وتضاعف ببركته يده الشريفة. فقد كان سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه يروي قصصاً عجيبةً في غزوة الخندق، حين أشبع سيدنا رسول الله ﷺ جيشاً كاملاً من طعام لا يكفي لشخصين، بمجرد دعائهما وبماركته فيه، وهو دليل على سخاء المدد الإلهي.

ثالثاً: المنهج التربوي في قراءة المعجزات

إن التأمل في معجزات سيدنا رسول الله ﷺ ليس ترفاً تاريخياً، بل هو منهج تربوي يقوّي الروح ويزيّد من اليقين.

* المعيزة دليل على الكمال: إن أهل البصائر يدركون أن هذه الخوارق هي انعكاس لكمال المتصل به صلى الله عليه وسلم، وأن كرامات الصحابة الكرام والسلف الصالح ما هي إلا نقطة من بحر كراماته.

* النصيحة العملية: أجعلوا معجزات نبيكم دافعاً لزيارة المحبة والاتباع، فكلما عظّمتم الدليل، عظّم المدلول عليه في قلوبكم، وتحولت القصة إلى يقين يضيء دروب الحياة.

فيكيفينا شرفاً أننا أتباع نبيٍ كانت معجزاته الخالدة هي كتبنا الذي بين أيدينا، وبالله تعالى التوفيق.

5. الشّوق إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم: غاية المحبين

الحمد لله رب العالمين، والصلوة والسلام على سيدنا وقدوتنا محمد، رحمة الله للعالمين، وعلى آلـه وصحبـه ومن سار على ذريـه واهـتدـيـه إلى يـوم الدـين، وبـعـد؛

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: لَا يَكْتُمُ إِيمَانُ الْمُؤْمِنِ إِلَّا بِمَحَبَّةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا تَصْدُقُ هَذِهِ الْمَحَبَّةُ إِلَّا بِالشَّوْقِ الْحَقِيقِيِّ إِلَيْهِ. إِنَّهُ شَوْقٌ لَا تَقْتُلُهُ الْمَسَافَاتُ وَلَا تُخْفِيهِ السُّنُونَ، بَلْ هُوَ وَقْدُ يَرِيدُ اشْتِغَالًا مَعَ كُلِّ صَلَاةٍ عَلَيْهِ، وَمَعَ كُلِّ سُنْنَةٍ تَتَبَعُهَا مِنْ سُنْنِنِهِ، فَكَيْفَ لَا تَشْتَاقُ لِمَنْ كَانَ أَكْمَلَ النَّاسِ خُلُقًا وَأَحْسَنَهُمْ صِفَةً؟ كَيْفَ لَا تَشْتَاقُ لِمَنْ جَاءَ لِيُخْرِجَ الْبَشَرِيَّةَ مِنْ ظُلْمَاتِ الشَّرِكِ إِلَى نُورِ التَّوْحِيدِ؟

الشَّوْقُ فِي حَيَاةِ الصَّحَابَةِ: أَصْدَقُ نَمَادِيجِ الْمَحَبَّةِ: إِنَّ تَارِيَخَ الْإِسْلَامِ مَلِيءٌ بِقَصَصِ الشَّوْقِ الْعَظِيمِ مِنْ الْصَّحَابَةِ إِلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ قَصَصٌ تَدْلُّ عَلَى عُمُقِ التَّعْلُقِ وَصِدْقِ الْمَحَبَّةِ:

* شَوْقُ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بَعْدَ وَفَاهَ سَيِّدِنَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لَمْ يَطِقْ بِلَالُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْبَقَاءَ فِي الْمَدِينَةِ، فَسَافَرَ إِلَى الشَّامِ. وَعِنْدَمَا زَارَ الْقَدْسَ، رَأَاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَابِ وَطَلَبَ مِنْهُ أَنْ يُؤْدِنَهُ، وَعِنْدَمَا شَرَعَ فِي الْأَذَانِ، وَقَالَ "أَشْهُدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"، خَنَقَتْهُ الْعَبْرَةُ وَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُكِمِلَ، فَبَكَى النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِ لِشَوْقِهِمْ إِلَى سَيِّدِنَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَبَكَى عُمُرُ حَتَّى اخْضَلَتْ لِحْيَتُهُ.

* عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: "مَا كَانَ أَحَدُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَا أَجَلَّ فِي عَيْنَيِّ مِنْهُ، وَمَا كُنْتُ أُطِيقُ أَنْ أَمْلَأَ عَيْنَيِّ مِنْهُ إِجْلَالًا لَهُ". كَانَ شَوْقُهُ وِإِجْلَالُهُ يَمْنَعُهُ مِنْ الْإِكْتَارِ مِنَ النَّظَرِ إِلَيْهِ، لِأَنَّ حُبَّهُ لَهُ كَانَ حُبَّ تَبْجِيلٍ وَتَعْظِيمٍ.

* ثَوْبَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ ثَوْبَانُ مَوْلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَدِيدَ الْحُبُّ لَهُ، فَذَاتَ يَوْمٍ أَتَاهُ شَاحِبُ الْلَّوْنِ، فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ: "مَا الَّذِي غَيَّرَ لَوْنَكَ؟" فَقَالَ ثَوْبَانُ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبَيِّنُ مِنْ مَرَضٍ، وَلَكِنْ لَمَّا أَرَكَ اشْتَقْتُ إِلَيْكَ، ثُمَّ تَفَكَّرْتُ فِي الْآخِرَةِ، فَخَشِيتُ أَنْ لَا أَرَاكَ فِي الْجَنَّةِ، لِأَنَّ مَنْزِلَتَكَ فَوْقَ مَنْزِلِي". فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى قَوْلَهُ: "وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهِداءِ وَالصَّالِحِينَ، وَحَسْنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا".

كَيْفَ نُعَبِّرُ عَنْ شَوْقِنَا فِي زَمِنِنَا؟

إِنَّ الشَّوْقَ لَيْسَ مُجَرَّدَ دَمْعَةٍ تُدَرِّفُ، بَلْ هُوَ عَمَلٌ يُقَدَّمُ، وَقَدْ قَالَ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْدَدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا" فَقَالَ الصَّحَابَةُ: "أَوْلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟" قَالَ: "بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ". وَهَذَا شَوْقٌ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْنَا. فَلَنْرِهُ أَنَّا أَهْلُ لِهِذَا الشَّوْقِ بِأَفْعَالِنَا:

* كثرة الصلاة والسلام عليه: قال تعالى: "إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ" يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً. فاجعل لسانك رطبا بالصلاحة عليه، فهي باب الوصال وسبب القرب.

* اتباع سنته العطرة: الشوق الصادق يتترجم إلى سلوك. فأحني سنته في حياتك، في صلاتك وصيامك، في معاملاتك وأخلاقك. فكل سنة تحييها هي دليل على شوقي.

* قراءة سيرته وفهمها: لا يمكن أن تستيقن إلى من لا تعرفه. فاقرأ عن شمائله، وعن صبره، وعن رحمته، وعن قوته وعدله. وفي قراءة سيرته تجدید للعهد وإطفاء لظمآن الشوق.

* تعريف الناس برسالته: كن داعية لأخلاقه وقيميه. فإذا أحببت شيئاً تميّزت أن يحبه الناس مثلك. وكل دعوة إلى خير أو نهي عن شر بالحكمة هي امتداد لرسالته الحالية.

الخاتمة: لقاء على الحوض

أيها السادة الكرام: ليكن شوقنا إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دافعاً لاعمالنا الصالحة. فاللقاء به في الآخرة هو الأمل الأكبر، والوعد الحق. فأكثروا من الصلاة والسلام عليه، واجعلوا منه قدوتكم، ليكونوا من أهل شفاعتيه، ومن أهل لقائه على الحوض الشريف.

فهنئنا لمن غرس في قلبه شوقاً صادقاً، فقاده هذا الشوق إلى الجنة، إلى صحبة الأنبياء والصديقين. وبالله تعالى التوفيق.

٦. حب آل البيت وسيلة السعادة

الحمد لله الذي جعل محبة نبيه سيدنا محمد ﷺ وآل بيته الأطهار قربة من أعظم القربات، وسبيلاً لنيل أرفع الدرجات، والصلاحة والسلام على من قال: "المerule مع من أحب"، سيدنا رسول الله، وعلى آله مصابيح الدجى، وسفينة النجاة، وعلى أصحابه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان وصدق، حب آل البيت فرض عندنا، وبهذا الحب لا تخشى المحن.

أيها السادة الكرام: إن لأهل بيته النبوة مكانة علية، و منزلة سنية، ليست مستمدة من نسب أرضي فحسب، بل هي اصطفاء إلهي، وتكرير رباني، اقترب بشرف القرب من متبع الرسالة. وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول في محكم تنزيلا: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُظْهِرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

وَلَقْد أَوْصَانَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهِمْ خَيْرًا، وَجَعَلَ النَّمْسُكَ بِهِمْ أَمَانًا مِنَ الضَّلَالِ، فَقَالَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ: "إِنِّي تَارِكٌ فِيْكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي، مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا فَلَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا" (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَخْمَدُ وَالْحَاكِمُ وَقَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ).

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: نَسْبُ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الشَّمْسِ ضَوْءًا: وَفِي قَلْبِ هَذِهِ الْكَوْكَبِيَّةِ الْمُضِيَّةِ، يُشْعِعُ نُورُ سَيِّدِ الشَّبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، سَيِّدُنَا الْإِمَامُ الْحُسَينُ عَلَيْهِ السَّلَامُ. هُوَ رَيْحَانَةُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ ابْنُ الْبَتُولِ سَيِّدِنَا فَاطِمَةَ الرَّزْهَرَاءِ، وَابْنُ سَيِّدِنَا الْإِمَامِ عَلَيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَمِ اللَّهُ وَجْهُهُ.

لَقْدْ كَانَتْ مَحَبَّةُ النَّبِيِّ ﷺ لَهُ عَجَبًا، حَتَّى قَالَ: "حُسَيْنٌ مِيَّ وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبُّ اللَّهُ مِنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا" (رَوَاهُ الْإِمَامُ أَخْمَدُ وَالترْمِذِيُّ وَقَالَ: حَدِيثُ حَسَنٌ). فَمَحَبَّتُهُ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ عَاطِفَةً نَسِيَّةً، بَلْ هِيَ عِبَادَةً تَنَقَّرُ بِهَا إِلَى اللَّهِ.

وَلِهَذِهِ الْمَكَانَةِ الرَّفِيعَةِ لِآلِ الْبَيْتِ جَمِيعًا، صَدَحَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَبْيَاتِهِ الْخَالِدَةِ، مُعْلِنًا أَنَّ حُبَّهُمْ فَرْضٌ وَقُرْبَانٌ، فَقَالَ:

يَا آلَ بَيْتِ رَسُولِ اللَّهِ حُبُّكُمْ ... فَرْضٌ مِنْ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ أَنْزَلَهُ كَفَاكُمْ مِنْ عَظِيمِ الْقَدْرِ أَنَّكُمْ ... مَنْ لَمْ يُصَلِّ عَلَيْكُمْ لَا صَلَاةَ لَهُ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: كَيْفَ أَحَبَّهُمُ الصَّالِحُونَ: لَقْدْ أَدْرَكَ السَّلْفُ الصَّالِحُ وَالْعُلَمَاءُ الْعَالِمُونَ هَذِهِ الْمَكَانَةَ، فَتَرَجَّمُوا مَحَبَّتَهُمْ إِلَى ثَوْقِيرٍ وَاجْلَالٍ:

* لَمَّا جَاءَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِيَأْخُذَ بِرِّكَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ (أَيُّ يُمْسِكُ بِلِجَامِ دَابِّتِهِ لِيُسَاعِدَهُ عَلَى الرُّكُوبِ): قَالَ زَيْدٌ: "خَلُّ عَنِّكَ يَا ابْنَ عَمٍّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ!"، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "هَكَذَا نَفْعَلُ بِعُلَمَائِنَا وَكُبَرَائِنَا". فَقَبَّلَ زَيْدٌ يَدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَقَالَ: "هَكَذَا أُمِرْنَا أَنْ نَفْعَلَ بِأَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

* فَهَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ لِسَيِّدِنَا فَاطِمَةَ بِنْتِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ: "يَا ابْنَةَ عَلِيٍّ، وَاللَّهُ مَا عَلَى ظَهَرِ الْأَرْضِ أَهْلُ بَيْتِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكُمْ...".

* وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاقِفِ، قِصَّةُ الْفَرْزَدقِ الْمَسْهُورَةُ فَيُرَوِّى أَنَّ الْخَلِيفَةَ الْأُمُوَيَّ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ حَجَّ فِي وِلَايَةِ أَبِيهِ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَحَاوَلَ الْوُصُولَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ لِيَسْتَلِمَهُ، لَكِنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ بِسَبَبِ شِدَّةِ الرَّحَامِ. بَيْنَمَا هُوَ كَذِلِكَ، أَقْبَلَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ (زَيْنُ الْعَابِدِينَ)، فَمَا

إِنْ رَأَهُ النَّاسُ حَتَّى تَفَرَّقُوا لَهُ إِجْلَالًا وَتَوْقِيرًا، وَأَفْسَحُوا لَهُ الطَّرِيقَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْحَجَرِ فَأَسْتَلَمْهُ بِسُهُولَةٍ.

فَسَأَلَ هِشَامٌ، مُتَجَاهِلًا: "مَنْ هَذَا؟" (لِأَنَّهُ عَرَفَهُ وَلَكِنَّهُ أَزَادَ التَّغَافُلَ).

فَقَامَ الْفَرِزْدَقُ الشَّاعِرُ - وَكَانَ حَاضِرًا - لِيُبَشِّدَ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ الَّتِي بَيْنَ فِيهَا شَرْفَ وَنَسَبَ الْإِمَامِ عَلَيِّ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، فَكَانَ مِنْ أَرْوَعِ مَا قِيلَ فِي مَحَبَّةِ وَثَنَاءِ السَّلْفِ عَلَى آلِ الْبَيْتِ.

هَذَا الَّذِي تَعْرِفُ الْبَطْحَاءُ وَطَائِهُ *** وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِلُّ وَالْحَرْمُ
هَذَا ابْنُ خَيْرِ عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ *** هَذَا التَّقِيُّ النَّقِيُّ الظَّاهِرُ الْعَلَمُ
إِذَا رَأَتْهُ قُرْيَشٌ قَالَ قَائِلَهَا *** إِلَى مَكَارِمِ هَذَا يَنْتَهِي الْكَرْمُ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: الْمَنْهَجُ الْقَوِيمُ فِي الْمَحَبَّةِ وَالرِّيَارَةِ (رُؤْيَاةُ الْإِمَامِ الرَّائِدِ سَيِّدِي الشَّيْخِ مُحَمَّدُ زَكِيُّ الدِّينِ إِبْرَاهِيمُ)، إِنَّ الْمَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ تَدْفَعُ الْقَلْبَ بِشَوْقٍ إِلَى زِيَارَةِ مَوَاطِنِ الصَّالِحِينَ. وَلَكِنَّ أَهْلَ الْبَصِيرَةِ يَعْلَمُونَ أَنَّ هَذِهِ الرِّيَارَةَ لَا بُدَّ أَنْ تُحَاطَ بِسِيَاجٍ مِنَ الْآذَابِ الْشَّرِيعَيَّةِ. وَقَدْ ضَبَطَ الْإِمَامُ الرَّائِدُ سَيِّدِي الشَّيْخِ مُحَمَّدُ زَكِيُّ الدِّينِ إِبْرَاهِيمُ هَذَا الْمَنْهَجَ، وَجَعَلَهُ قَائِمًا عَلَى جَنَاحَيْنِ لَا يَطِيرُ الْمُجِبُ إِلَّا بِهِمَا مَعًا:

الْجَنَاحُ الْأَوَّلُ: التَّنْزِيهُ وَالتَّوْحِيدُ (مِنْ كِتَابِهِ: الإِفْهَامُ وَالْإِفْحَامُ): كَانَ هَمُّهُ الْأَكْبَرُ هُوَ تَنْقِيَّةُ الْمَحَبَّةِ وَالرِّيَارَةِ مِمَّا قَدْ يَشُوبُهَا مِنْ مُخَالَفَاتٍ عَقْدِيَّةٍ أَوْ غُلُوْ. فَأَكَدَ أَنَّ الْأَسَاسَ هُوَ التَّوْحِيدُ (فَلَا نَافِعٌ وَلَا ضَارٌ إِلَّا اللَّهُ)، وَأَثْبَتَ بِالْأَدَلَّةِ مَشْرُوعِيَّةَ "الْتَّوْسُلِ" الصَّحِيحِ (وَهُوَ أَنْ تَطْلُبَ مِنَ اللَّهِ بِجَاهِ وَلِيِّهِ)، مَعَ إِنْكَارِهِ الشَّدِيدِ لِمُخَالَفَاتِ بَعْضِ الْعَوَامِ مِنْ الطَّوَافِ بِالْقُبُورِ أَوْ طَلَبِ الْحَوَائِجِ مِنْ أَهْلِهَا.

الْجَنَاحُ الثَّانِي: الْمَحَبَّةُ وَالتَّغْظِيمُ (مِنْ كِتَابِهِ: مَرَاقِدُ أَهْلِ الْبَيْتِ): وَعَلَى الْجَانِبِ الْآخِرِ، رَفَضَ بِشِدَّةٍ مَنْهَجَ "الْجَفَاءِ" الَّذِي يُنْكِرُ فَضْلَ آلِ الْبَيْتِ أَوْ يُحَرِّمُ زِيَارَتَهُمْ. وَأَثْبَتَ بِالْتَّحْقِيقِ الْعِلْمِيِّ فَضْلَهُمْ وَحَقَّهُمْ فِي الْمَحَبَّةِ، وَأَنَّ زِيَارَتَهُمْ سُنَّةٌ لِلتَّدْكِرَةِ وَالْإِعْتِباَرِ.

فَمَنْهَجُهُ يَا سَادَةُ هُوَ: "مَحَبَّةٌ بِلَا غُلُوْ، وَاتِّبَاعٌ بِلَا ابْتِدَاعٍ".

فَلْيَكُنْ حُبُّنَا لِسَيِّدِنَا الْحُسَيْنِ وَلَلَّـِ الْبَيْتِ حُبًّا صَادِقًا نَقِيًّا، يَتَرَجَّمُ إِلَى الْإِلْتِزَامِ بِشَرِيعَةِ جَدِّهِمْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَلِكُ هُوَ عُنْوانُ الْفَلَاحِ، وَتِلْكَ هِيَ وَسِيلَةُ السُّعَادِ الْحَقِيقَيَّةِ.

وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

٧. بِجَوَارِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَجْلِسُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ تَحِنُّ إِلَى دِيَارِ الْمُصْطَفَى، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ
الْوَرَى، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبَعَهُ يَا حُسَانَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: إِنَّهُ لَشُعُورٌ يَعْصَى عَلَى الْوَصْفِ، شُعُورٌ أَنْ تَظَاهِرَ أَرْضًا طَاهِرَةً
بَارَكَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَشَرَقَهَا بِأَفْضَلِ خَلْقِهِ ﷺ. إِنَّهَا الْمَدِينَةُ الْمُنَوَّرَةُ، لَيْسَتْ مُجَرَّدَ مَكَانٍ
عَلَى الْخَرِيطَةِ، بَلْ هِيَ قِطْعَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ، تَتَنَفَّسُ فِيهَا عَبْقَ النُّبُوَّةِ، وَتَلْمَسُ فِيهَا أَثْرَ
الْخُطُوطِ الشَّرِيقَةِ. إِنَّهَا غَايَةُ كُلِّ مُسْتَاقٍ، وَأَمَلُ كُلِّ مُحِبٍّ.

فَكَيْفَ لَا تَنْبِضُ الْقُلُوبُ شَوْقًا لِأَنْ تَقِفَ بِجَوَارِ مَنْ كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﷺ؟ وَكَيْفَ لَا تَنْحُنُ
لِلْجُلوسِ فِي مَكَانٍ شَهِدَ صَفْوَ النُّبُوَّةِ، وَمَهَدَ الرِّسَالَةِ، وَمَثَوَّيْ أَطْهَرِ جَسَدٍ؟ إِنَّ حُبَّ زِيَارَتِهِ
لَيْسَ مُجَرَّدَ عَمَلٍ، بَلْ هُوَ تَجَسُّدٌ لِعُمْقِ الْمَحَبَّةِ وَصِدْقِ الْوَقَاءِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكُمْ
فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفِرُ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا» (النِّسَاء: ٦٤). هَذِهِ الْآيَةُ
الْعَظِيمَةُ لَيْسَتْ فَقَطْ دَلِيلًا عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الْمَحِيَّةِ إِلَيْهِ وَظَلَبِ شَفَاعَتِهِ، بَلْ هِيَ دَعْوَةً لِأَنْ
يَكُونَ قُرْبُهُ مَلْجَأً لِلنُّفُوسِ وَرَاحَةً لِلْقُلُوبِ، فَقُدْسِيَّةُ مَقَامِهِ بَاقِيَّةٌ لِزِيَادَةِ الْطُّمَائِنَيَّةِ وَالْتَّأْكِيدِ
عَلَى عِظَمِ مَكَانِتِهِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: لَقَدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يَرَوْنَ فِي الْمَدِينَةِ مَكْوَنًا رُوحِيًّا لَا يُمْكِنُ أَنْ
يَفْصِلُوهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلِذَلِكَ كَانَ لَهُمْ مَعَهَا قَصَصٌ تُحْكَى:

* أَبُو أَيُوبُ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عِنْدَمَا قَدِيمَ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَرَكَتْ
نَاقَّتُهُ أَمَامَ بَيْتِ أَبِي أَيُوبَ، فَأَصْبَحَ بِشَرِفِ ضِيَافَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. لَمْ يَكُنِ الْأَمْرُ مُجَرَّدَ
اسْتِضَافَةٍ، بَلْ هُوَ شَغَفٌ وَحُبٌّ لِأَنْ يَكُونَ قَرِيبًا مِنْ مَنْبِعِ الْهُدَى. فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ إِلَى بَيْتِهِ،
قَامَ أَبُو أَيُوبَ بِتَجْهِيزِ طَعَامِهِ وَخَدْمَتِهِ، مُعَبِّرًا عَنْ حُبٍّ لَا يُقْدَرُ بِثَمَنٍ.

* عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فِي عَامِ الرَّمَادَةِ، حِينَ اشْتَدَّ الْقَحْطُ، اسْتَسْقَى النَّاسُ
بِالْعَبَاسِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَرَأَى النَّاسُ بَعْدَ أَنْ دَعَا بِهِمْ وَبَقْرِبِهِ مِنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ
الْمَطَرَ نَزَلَ. فَقَدْ كَانُوا يَرَوْنَ فِي قُرْبِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَفَاعَةً حَتَّى بَعْدَ وَفَاتِهِ.

* عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ أَبْنُ عُمَرَ شَدِيدَ الْإِتْبَاعِ لِخُطُوطِ سَيِّدِنَا رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ، حَتَّى كَانَ يَتَحَرَّى الصَّلَاةَ فِي الْمَوَاضِعِ الَّتِي صَلَّى فِيهَا النَّبِيُّ، وَيَتَحَرَّى
الْجُلوسَ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي جَلَسَ فِيهَا. هَذَا الْحُبُّ لِلْأَثَرِ وَتَتَبَعُ الْخُطُوطِ هُوَ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَى
مَدَى تَعْلِقِهِ بِسَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: لَكَ لَا تَكُونَ زِيَارَتُنَا مُجَرَّدَ رِحْلَةً سِيَاحِيَّةً، عَلَيْنَا أَنْ نُحَوِّلَهَا إِلَى رِحْلَةٍ رُوحِيَّةٍ تُغَيِّرُ مَا فِي قُلُوبِنَا. وَمِنْ أَهْمَمِ النَّصَائِحِ لِذَلِكَ:

- * حُسْنُ النِّيَّةِ: اجْعَلْ نِيَّتَكَ صَافِيَّةً لِلَّهِ وَحْبَ رَسُولِهِ ﷺ، لِيُبَارِكَ اللَّهُ لَكَ فِي هَذِهِ الْزِيَارَةِ.
- * التَّعْرُفُ عَلَى الْمَكَانِ: قَبْلَ الدَّهَابِ، اقْرَأْ عَنِ الْمَدِينَةِ وَمَعَالِمِهَا، وَتَخَيَّلْ مَوَاقِفَ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالصَّحَابَةِ فِيهَا. هَذَا يُعَطِّي الْزِيَارَةَ عُمْقاً.
- * التَّمَسُّكُ بِالْآدَابِ: إِذَا وَصَلْتَ الْمَدِينَةَ، فَأَخْلِصْ فِي التَّوْجُّهِ إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَصَلِّ عَلَيْهِ بِأَدَبٍ وَتَوْقِيرٍ، وَاعْلَمْ أَنَّكَ فِي حَضْرَةِ أَكْمَلِ النَّاسِ خَلْقَهُ وَخُلُقَهُ.
- * اسْتِشْعَارُ الْمَكَانِ: فِي الْمَدِينَةِ، حَاوِلْ أَنْ تَتَجَوَّلَ فِي الْأَمَاكِنِ التَّارِيْخِيَّةِ كَأُحْدِي وَقُبَّاً، وَاسْتَخْضِرْ مَا حَدَثَ فِيهَا مِنْ مَوَاقِفَ عَظِيمَةٍ، فَهِيَ شَاهِدٌ عَلَى عِظَمِ الرِّسَالَةِ.
- لِقاءُ عَلَى الْحَوْضِ: أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: لِيُكْنِ حُبُّنَا لِزِيَارَةِ الْمَدِينَةِ دَافِعاً لِأَعْمَالِنَا الصَّالِحةِ. فَاللَّقَاءُ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْآخِرَةِ هُوَ الْأَمْلُ الْأَكْبَرُ، وَالْوَعْدُ الْحَقُّ. فَأَكْثُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ، وَاجْعَلُوا مِنْهُ قُدْوَتَكُمْ، لِتَكُونُوا مِنْ أَهْلِ شَفَاعَتِهِ.

فَهَنِيئَا لِمَنْ غَرَسَ فِي قَلْبِهِ حُبًا صَادِقًا، فَقَادَهُ هَذَا الْحُبُّ إِلَى زِيَارَتِهِ فِي الدُّنْيَا، وَإِلَى لِقَائِهِ فِي الْآخِرَةِ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

٨. جِيلُ الصَّفْوَةِ: حِصْنُ الْيَقِينِ وَمَنْزِلَةُ الصَّحَابَةِ

أَحْمَدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الَّذِي اصْطَفَى خَيْرَ خَلْقِهِ لِخَيْرِ رِسَالَةٍ، وَاخْتَارَ لَهُمْ خَيْرَ صُحْبَةٍ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ الَّذِينَ حَمَلُوا النُّورَ بِصَدِقٍ وَيَقِينٍ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: إِنَّ الْحَدِيثَ عَنْ صَحَابَةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْسَ مُجَرَّدَ سَرِّ تَارِيْخِيًّا، بَلْ هُوَ حَدِيثٌ عَنْ أَصْلِ الدِّينِ وَأَسَاسِ النَّقْلِ. هُمُ الْجِيلُ الْمُؤْسِسُ الَّذِي حَمَلَ لَنَا الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ نَقِيَّيْنِ صَافِيَيْنِ. لِذَلِكَ، كَانَ لِزَاماً عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَعْقِدَ قَلْبُهُ عَلَى مَحِبَّتِهِمْ وَتَوْقِيرِهِمْ، فَمَمْحَبَّتُهُمْ مِنْ مَحِبَّةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَوْلَأَ: الْاِصْطِفَاءُ الْإِلَاهِيُّ (حِكْمَةُ التَّكْوِينِ): إِنَّ صُحْبَةَ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ تَكُنْ مُجَرَّدَ صُدْفَةً، بَلْ كَانَتْ احْتِيَارًا إِلَهِيًّا مُحْكَمًا، وَهِيَ مِنْ دَلَائِلِ حِفْظِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِشَرِيعَتِهِ:

* بِشَهَادَةِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ (أَصْلُ التَّرْكِيَّةِ): لَمْ يَكْتَفِ اللَّهُ تَعَالَى بِتَرْكِيَّةِ النَّبِيِّ لَهُمْ، بَلْ أَثْنَى عَلَيْهِمْ فِي كِتَابِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي حَقِّ السَّابِقِيَّنِ مِنْهُمْ: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ

الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعْدَ اللَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿التوبه: ١٠٠﴾ . فَأَيُّ تَرْكِيَةٍ أَبْلَغَ مِنْ قَوْلِهِ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ"؟

* صَفْوَةُ الْأَرْمَانِ: لَمْ يَخْتَرِ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ إِلَّا أَنَّقَ الْقُلُوبَ وَأَصْدَقَ النُّفُوسِ لِيُسَاعِدُوهُ عَلَى حَمْلِ الرِّسَالَةِ فِي أَحْلَكِ الظُّرُوفِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى تَفْضِيلِهِمْ جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ:

* رَوَى الْإِمَامُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ، عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَثُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلْوَثُهُمْ".

ثَانِيًّا: النَّهْيُ النَّبَوِيُّ وَمِيزَانُ الْمُقَاضَلَةِ : لِعَظِيمِ مَنْزَلِهِمْ وَقِيمَةِ سَابِقِهِمْ، جَاءَ التَّشْدِيدُ النَّبَوِيُّ الصَّارِمُ فِي النَّهْيِ عَنْ أَدْنِي تَجَاوِزِ فِي حَقِّهِمْ، وَهُمْ خَطُّ أَحْمَرُ فِي مِيزَانِ الشَّرِيعَةِ. وَمِنْ هَنَا يَتَجَلَّ الْمَعْنَى الَّذِي أَشَرْتُمْ إِلَيْهِ:

* رَوَى الْإِمَامُ البُخَارِيُّ وَمُسْلِمُ، عَنْ سَيِّدِنَا أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَسْبُوا أَصْحَাইِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحْدِي ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ".

إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ الشَّرِيفَ يَضُعُ قَاعِدَةً أَبْدِيَّةً لِمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ:

* قِيمَةُ السَّابِقَةِ وَالْبَرَكَةُ النَّبَوِيَّةُ: لَمْ تُقْسَنْ فَضَائِلُ الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بِحَجمِ الْعَمَلِ، بَلْ بِنُوعِيَّةِ الْعَمَلِ وَظُرُوفِهِ. فَمَدْ (مِقْدَارٌ صَبِيلٌ) يَتَصَدَّقُ بِهِ الصَّحَابِيُّ فِي ظِلِّ قِلَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَشِدَّةِ الْحَاجَةِ، أَفْضَلُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جَبَلٍ ذَهَبًا يُنْفَقُهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ.

* فَضْلُ الصُّحَابَةِ: إِنَّ شَرْفَ رُؤْيَا رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالإِيمَانِ بِهِ لَحْظَةً وَاحِدَةً، يَعْدِلُ عِبَادَةً الْعُمُرِ كُلِّهِ لِمَنْ لَمْ يُشَاهِدْهُ، فَهُمُ الَّذِينَ حَاضُوا مَعَهُ الْمِحْنَ وَالشَّدَائِدَ، وَشَارَكُوكُهُ فِي تَحْمُلِ الرِّسَالَةِ.

ثَالِثًا: الْمَوْقِفُ الْعَمَلِيُّ (طَرِيقُ أَهْلِ الْبَصَائِرِ)

يَتَّفِقُ أَهْلُ الْمَنْهِجِ السَّلِيمِ عَلَى مَوْقِفٍ مُحَكَّمٍ تجَاهَ أَيِّ خِلَافٍ وَقَعَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ:

* الْكَفُّ عَمَّا شَجَرَ بَيْنَهُمْ: عَقِيدَتُنَا هِيَ الْإِمْسَاكُ عَمَّا وَقَعَ بَيْنَهُمْ مِنْ خِلَافَاتٍ وَفِتَنٍ. فَهُمْ مُجْتَهِدوْنَ، وَالْمُجْتَهِدُ إِمَّا مُصِيبٌ وَلَهُ أَجْرٌ وَاحِدٌ.

* الدَّعْوَةُ وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمْ (الْوَاجِبُ الْقَرْآنِيُّ): تَبَّعَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَعْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا إِلِيَّا إِيمَانًا﴾ (سورة الحشر: ١٠). فَوَاجِبُنَا هُوَ الدُّعَاءُ لَهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَلَا يَنْدَعُ إِلَيْهِمُ التَّقدَّمُ أَوِ السَّبَّ.

فَلْنُحَافِظْ عَلَى قُلُوبِنَا صَافِيَّةً تِجَاهَ صَفْوَةِ جِيلِ النُّبُوَّةِ، لِيَكُونَ إِيمَانُنَا كَامِلًا مُتَّصِلًا بِأَصْلِ النُّورِ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

الفصل الثاني

تَزْكِيَّةُ النُّفُوسِ وَإِصلاحُ الْقُلُوبِ

٩. يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ: عِنْدَمَا يَكُونُ الْعَقْلُ نُورًا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيمِ الْحَكِيمِ، الَّذِي قَسَّمَ الْأَرْزَاقَ وَالْعُقُولَ، وَفَضَّلَ أَهْلَ الْحِكْمَةِ عَلَى سَائِرِ
الْفَضُولِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي كَانَ يَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ، وَيَقُولُ بِالْحَقِّ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أُولَى النُّهَى وَالبَصَائرِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ : كَثِيرًا مَا يَسْعَى النَّاسُ لِجَمْعِ الْمَالِ، وَيَتَنَافَسُونَ فِي تَحْصِيلِ الْعِلُومِ
وَالْمَعَارِفِ، وَلَكُنْ قَلَّ مَنْ يَقِفُ عِنْدَ بَابِ اللَّهِ سَائِلًا "الْحِكْمَةَ".

تَلَقَّ الْجَوَهْرَةُ الْيَتِيمَةُ الَّتِي مَنْ حَازَهَا فَقَدْ حَازَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ. يَقُولُ الْحَقُّ سَبَحَانَهُ فِي مُحَكَّمِ
الْتَّنْزِيلِ:

﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾
(البقرة: ٢٦٩).

تَأَمَّلُوا هَذَا التَّعْبِيرَ الْإِلَهِيَّ: ﴿فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾. لَمْ يَقُلْ خَيْرًا فَقَطْ، بَلْ وَصَفَهُ بِالكُثْرَةِ،
لَأَنَّ الْمَالَ بِلَا حِكْمَةٍ نِقْمَةٌ، وَالْعِلْمَ بِلَا حِكْمَةٍ طُغْيَانٌ، وَالْقُوَّةَ بِلَا حِكْمَةٍ ظُلْمٌ. فَالْحِكْمَةُ هِيَ
"ضَابِطُ النِّعَمِ".

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: مَا هِيَ الْحِكْمَةُ؟ لَيْسَتِ الْحِكْمَةُ كُثْرَةُ الرِّوَايَةِ، وَلَا حِفْظُ الْمُتُوْنِ، وَلَا
فَصَاحَةُ الْلِّسَانِ فَحَسْبٍ.

الْحِكْمَةُ - كَمَا عَرَفَهَا أَهْلُ الْبَصِيرَةِ - هِيَ: "وَضْعُ الشَّيْءِ فِي مَوْضِعِهِ".

أَنْ تَعْرِفَ مَتَى تَتَكَلَّمُ وَمَتَى تَصْمِمُ.. مَتَى تَشُدُّ وَمَتَى تَلِينُ.. مَتَى تُقْدِمُ وَمَتَى تُحِجِّمُ.

هِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، يُمَيِّزُ بِهِ الْعَبْدَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْأَهَمِّ وَالْمُهِمِّ.

الْفَرْقُ بَيْنَ "الْعَالَمِ" وَ "الْحَكِيمِ":

* **العالِمُ**: يَعْرِفُ الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَيَحْفَظُ الْأَدْلَةَ.

* **الْحَكِيمُ**: يَعْرِفُ كَيْفَ يُطَبِّقُ هَذَا الْعِلْمُ فِي الْوَاقِعِ بِمَا يُصْلِحُ الْحَالَ وَلَا يُفْسِدُ الْمَآلَ.

نَمَاذِجٌ مِنَ الْحِكْمَةِ فِي مَدْرَسَةِ النُّبُوَّةِ:

لقد كان سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَيِّدُ الْحُكَمَاءِ، وَمِنْ مِشْكَاتِهِ افْتَبَسَ الصَّحَابَةُ:

* حِكْمَةُ الصَّدِيقِ: فِي وَفَاهُ النَّبِيِّ ﷺ، طَاشَتْ عُقُولُ الصَّحَابَةِ، وَاسْتَعْلَتِ الْعَوَاطِفُ. هُنَا بَرَزَتْ "الْحِكْمَةُ" فِي شَخْصِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. لَمْ يَكُنْ أَقْلَهُمْ حُبًّا، لَكِنَّهُ كَانَ أَكْمَلَهُمْ عُقْلاً وَثِبَاتًا. وَقَفَ لِيَضْعُ الأُمُورَ فِي نِصَابِهَا وَيَرِيَطُ الْقُلُوبَ بِالْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ. هَذِهِ هِيَ الْحِكْمَةُ: "الثَّبَاتُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ".

* حِكْمَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ (تَرْجُمَانُ الْقُرْآنِ): صَمَّمَهُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ وَدَعَا لَهُ قَائِلًا: "اللَّهُمَّ فَقِهْهُ فِي الدِّينِ وَعَلِمْهُ التَّأْوِيلَ".

وَفِي رَوَايَةِ: "اللَّهُمَّ آتِهِ الْحِكْمَةَ". فَكَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُدْخِلُهُ فِي مَجْلِسِ الشُّورِيِّ مَعَ شِيوُخٍ بَدْرٍ وَهُوَ شَابٌ صَغِيرٌ؛ لِأَنَّهُ رُزِقَ "الْفَهْمَ الْعَمِيقَ" الَّذِي يَغْوِصُ إِلَى بَوَاطِنِ الْآيَاتِ، لَا مَنْ يَقِفُ عِنْدَ ظَواهِرِهَا.

* لُقْمَانُ الْحَكِيمُ: رَجُلٌ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا فِي قَوْلِ الْجَمَهُورِ، وَلَمْ يَكُنْ مَلِكًا ذَا سُلْطَانٍ، كَانَ عَبْدًا حَبْشَيًّا، لَكِنَّ اللَّهَ رَفَعَهُ بِالْحِكْمَةِ. ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾.

رَأْسُ الْحِكْمَةِ عِنْدَهُ كَانَ "الشُّكْرُ" وَ "الْأَدَبُ". سُئِلَ: مَا بَلَغَ بِكَ مَا نَرَى؟ قَالَ: "صِدْقُ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءُ الْأَمَانَةِ، وَتَرْكُ مَا لَا يَعْنِي".

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: كَيْفَ نَتَالُ الْحِكْمَةَ؟

إِنَّ الْحِكْمَةَ مِنَّهُ إِلَهِيَّةٌ ﴿يُؤْتِي... مَنْ يَشَاءُ﴾، وَلَكِنَّ لَهَا أَبْوَابًا تُطْرُقُ:

* التَّقْوَى: هي الْبَابُ الْأَعْظَمُ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعْلَمُ كُمُّ اللَّهُ﴾. مَنْ أَصْلَحَ سَرِيرَتَهُ، نَوَّرَ اللَّهُ بَصِيرَتَهُ، وَأَجْرَى الْحِكْمَةَ عَلَى لِسَانِهِ.

* الصَّمْتُ وَالْتَّفَكُرُ: لَا تَجْتَمِعُ الْحِكْمَةُ مَعَ كَثْرَةِ الْلِّغُوِّ. الْحَكِيمُ يُطِيلُ الصَّمْتَ لِيُطِيلَ الْفِكْرَ.

* مُجَالِسَةُ الصَّالِحِينَ: الْحِكْمَةُ عَدُوِّيَّةٌ. مَنْ جَالَسَ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ، سَرَّتْ إِلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ، وَتَعَلَّمَ مِنْ سَمْتِهِمْ قَبْلَ قَوْلِهِمْ.

* الْإِعْتِيَارُ بِالْتَّجَارِبِ: الْحَكِيمُ لَا يَمُرُّ عَلَى الْأَحْدَاثِ عَابِرًا، بل يَقِفُ لِيَسْتَخلِصَ الدَّرْسَ وَالْعِبْرَةَ.

فَلِئْسَاللَّهُ الْعَظِيمُ أَنْ يَرْزُقَنَا الْحِكْمَةَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَأَنْ يُجَبِّبَنَا الرَّازِلَ، فَمَنْ رُزِقَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ سِيقَتْ إِلَيْهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحَدَّا فِي رِهْمَاهَا。 وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ。

١٠. بَيْنَ الْقَلْبِ السَّلِيمِ وَالْقَلْبِ السَّقِيمِ: مَرَافِعُ النَّجَاهَةِ وَمَهَالِكُ الرَّدَى

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُقْلِبُ الْقُلُوبِ وَالْأَبْصَارِ، الْعَالِمُ بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَتُكِنُّ الْأَسْرَارُ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى طَبِيبِ الْقُلُوبِ وَدَوَاتِهَا، سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ، الَّذِي بَعَثَ لِيُزَيْگِ النُّفُوسَ وَيُظَهِّرُهَا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْأَطْهَارِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ : إِنَّ الْإِنْسَانَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ بِضُعْفٍ، وَمَلِكُ هَذِهِ الْبَضْعَةِ هُوَ "الْقَلْبُ".

إِذَا صَلَحَ الْمَلِكُ صَلَحَتِ الرَّعْيَةُ (الْجَوَارُخُ)، وَإِذَا فَسَدَ فَسَدَتْ.

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ النَّجَاهَةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَرْهُونَةً بِسَلَامَةِ هَذَا الْمُضْعَفِ، فَقَالَ سَبَحَانَهُ عَلَى لِسَانِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ :

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَنَّ اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ (الشِّعْرَاءُ: ٨٩-٨٨).

فَالْقُلُوبُ بَيْنَ يَدِيِ اللَّهِ ثَلَاثَةُ: قَلْبٌ سَلِيمٌ (حَيٌّ)، وَقَلْبٌ مَيْتُ (وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ)، وَقَلْبٌ مَرِيضٌ (سَقِيمٌ). وَحَدِيثُنَا الْيَوْمَ عَنِ الْفَارِقِ الدَّقِيقِ بَيْنَ "السَّلَامَةِ" وَ"الْمَرَضِ".

أَوَّلًا: الْقَلْبُ السَّلِيمُ (وِعَاءُ الْأَنْوَارِ)

هُوَ الْقَلْبُ الَّذِي سَلِيمٌ مِنْ كُلِّ شَهْوَةٍ تُخَالِفُ أَمْرَ اللَّهِ، وَمِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ تُعَارِضُ خَبْرَهُ. هُوَ قَلْبٌ لِيْسَ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ.

لِيْسَ الْمَقْصُودُ بِالْقَلْبِ السَّلِيمِ "السَّدَاجَةُ"، بَلِ الْمَقْصُودُ "النَّقَاءُ".

أَهْمُمُ عَلَامَاتِهِ:

* سَلَامَةُ الصَّدْرِ لِلْخَلْقِ: لَا يَحْمِلُ غِلَّا، وَلَا حِقدًا، وَلَا حَسَدًا لِأَحَدٍ.

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ يَوْمًا: "يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ". فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، تَكَرَّرَ ذَلِكَ ثَلَاثًا. فَتَبَعَّهُ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرُو بْنِ الْعَاصِ لِيَعْرِفَ سِرَّهُ، فَبَاتَ عَنْهُ لِيَالِيَ فَلَمْ يَرَهُ كَثِيرٌ صَلَاةً وَلَا صِيَامٍ (نَوَافِلَ).

فَلَمَّا سَأَلَهُ عَنِ السِّرِّ، قَالَ الرَّجُلُ: "مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًا، وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى حَيْرٍ أَعْظَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ". فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: "هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتُ بِكَ، وَهِيَ الَّتِي لَا نُطِيقُ".

* الرِّضا عن الله: فهو في سكون وطمأنينة، إنْ أَعْطَاهُ شَكَرٌ، وإنْ مَنَعَهُ صَبَرٌ، يعلمُ أنَّ تدبيرَ اللهِ لهُ خَيْرٌ مِّنْ تدبيرِهِ لِنفْسِهِ.

ثَانِيًّا: القلبُ المَرِيضُ (مَحْلُ الْأَكْدَارِ): هو قلبٌ فيه حياةٌ، ولكنَّ فيه "عِلَّةً". تَتَجَادَّبُهُ مَادَتَانِ: مادةُ الإيمانِ ومادةُ الهوى. وهو في صراع دائمٍ، وظاهرُ أعراضِ مَرَضِهِ في أمورٍ خطيرةٍ، سَمَّاها العلماءُ "أمراض القلوب"، ومنْ أَخْطَرُهَا:

* الرياءُ: وهو أنْ يَعْمَلَ العَبْدُ العملَ لِيَرَاهُ النَّاسُ لَا لِوَجْهِ اللهِ. وهو "الشَّرُكُ الْخَفِيُّ" الذي حَذَّرَ مِنْهُ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، لأنَّهُ يُحِبِّطُ العملَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ.

* العجبُ والكبُرُ: أنْ يَرَى العَبْدُ نفْسَهُ بَعْيَنَ التَّعْظِيمِ، ويَحْتَرَمُ غَيْرَهُ. وهذا هو داءُ إبليسِ الأولُ حينَ قالَ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾. والقلبُ المتكبرُ مَصْرُوفٌ عَنْ فَهْمِ آياتِ اللهِ، قالَ تَعَالَى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾.

* القسوةُ: وهي نتْيَةٌ كثرةِ الذُّنُوبِ والغَفْلَةِ. قالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ... فَإِنْ هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِّلَ قَلْبُهُ". فإذا زادَتِ الذُّنُوبُ، اسْوَدَ الْقَلْبُ وَعَلَاهُ "الرَّأْنُ"، فَلَمْ يَعُدْ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا ولا يُنْكِرُ مُنْكَرًا.

* آيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: كَيْفَ نُعَالِجُ قُلُوبَنَا؟ إِنَّ طَرِيقَ الْعُودَةِ مِنَ "السَّقَمِ" إِلَى "السَّلَامَةِ" يَحْتَاجُ إِلَى "طِبِّ رَبَّانِيٍّ"، وَصَفَّةُ لَنَا أَطْبَاؤُنَا مِنَ الْعَارِفِينَ:

* إِدْمَانُ الذِّكْرِ: الذِّكْرُ هو "الجَلَاءُ" الذي يُزِيلُ صدأَ الغَفْلَةِ. شَكَ رَجُلٌ إِلَى الْحَسْنِ الْبَصْرِيِّ قَسَاوَةَ قَلْبِهِ فَقَالَ لَهُ: "أَذِبْهَا بِالذِّكْرِ".

* تَلَاقُهُ الْقُرْآنِ بِتَدَبُّرِهِ: فهو الشفاءُ لِمَا في الصدورِ. قراءةُ وردٍ يوميٍّ بنيةُ الاستشفاءِ تُحِيِّي مَوَاتَ الْقَلْبِ.

* مُخَالَقَةُ الْهَوَى: أصلُ كُلِّ مَرَضٍ هو اتِّباعُ الهوى، ودواؤُهُ في مخالفتهِ.

* قِيَامُ اللَّيْلِ: ركعاتُ في جَوْفِ اللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَسْكُبُ فِي الْقَلْبِ نُورًا لَا تُوازِيهُ شَمْسُ الدُّنْيَا.

فَلْنَتَعَاهَدْ قُلُوبَنَا، وَلْنُفْتَشْ فِيهَا كُلَّ يَوْمٍ: هَلْ فِيهَا غِلْ؟ هَلْ فِيهَا كِبْرٌ؟ وَلْنُظَهِّرْهَا بِمَاِ الْاسْتَغْفَارِ، حتَّى نُلْقَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ، فَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

١١. يَكْفِي أَنْ تَكُونَ مَعْرُوفًا فِي السَّمَاءِ

الحمدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ وَكَرَمَهُ، وَجَعَلَ مِيزَانَ التَّفَاضُلِ عِنْدَهُ التَّقْوَى وَلَيْسَ سِوَاهَا،
وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْأَتَمَانُ الْأَكْمَلَانُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي أَرْسَى قِيمَ الْعَدْلِ الْإِلَهِيِّ، فَرَفَعَ
الْخَامِلِينَ بِإِيمَانِهِمْ، وَعَلَى آلِهِ وَأَضْحَابِهِ نُجُومُ الْهُدَى، وَمَنْ سَارَ عَلَى ذَرْبِهِمْ بِإِخْلَاصٍ
وَصَفَاءً.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ، فِي رَمَنَ أَصْبَحْتُ فِيهِ الْأَصْوَاءُ غَايَةً، وَكَلَامُ النَّاسِ هَمَّا، وَالسَّعْيُ وَرَاءَ
الشَّهْرَةِ وَالْمَنَاصِبِ دَأْبًا، تَأْتِي رِسَالَةُ السَّمَاءِ لِتُعِيدَ تَرْتِيبَ أُولَوِيَّاتِ الْقُلُوبِ، وَتُصَحِّحَ مَسَارَ
الرُّوحِ. إِنَّهَا الْحَقِيقَةُ السَّاطِعَةُ: مَا قِيمَةُ أَنْ يَعْرِفَكَ أَهْلُ الْأَرْضِ كُلُّهُمْ، وَأَنْتَ نَكِرَةٌ فِي مَلَكُوتِ
السَّمَاءِ؟ وَمَاذَا يَضُرُّكَ أَنْ يَجْهَلَكَ أَهْلُ الدُّنْيَا جَمِيعًا، وَاسْمُكَ يُتَلَى بِالثَّنَاءِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى؟

إِنَّ الْمِيزَانَ عِنْدَ اللَّهِ يَخْتَلِفُ كُلِّيًّا عَنْ مَوَازِينِ الْبَشَرِ. فَمَوَازِينُنَا قَاصِرَةٌ؛ تَزَنُ بِالْمَالِ وَالْجَاهِ
وَالْمَنْصِبِ وَالْحَسَبِ وَالنِّسَبِ. أَمَّا مِيزَانُ الْحَقِيقَةِ فَهُوَ دَقِيقٌ وَعَادِلٌ، لَا يَقْبِلُ إِلَّا عَمَلًا وَاحِدَةً:
الْتَّقْوَى. قَالَ الْمَوْلَى عَزَّ وَجَلَّ يَابْلُغُ بَيَانًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَئْقَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَسِيرٌ﴾
(الحجرات: ۱۳). فَلَيْسَ الْأَكْرَمُ هُوَ الْأَغْنَى أَوِ الْأَقْوَى، بَلْ هُوَ الْأَتْقَى.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: حِينَ تَصْمِمُ الْسِنَةُ الْمَدْحُ وَالْذَمْ

لَقْدْ عَلِمْنَا دِيْنُنَا أَنْ نُوْجِهَ أَعْمَالَنَا كُلَّهَا لِوْجِهِ وَاحِدٍ، هُوَ وَجْهُ اللَّهِ الْكَرِيمِ. فَمَنْ عَمِلَ لِيُرْضِيَ
اللَّهَ، لَا يَضُرُّهُ سَخْطُ النَّاسِ. وَمَنْ عَمِلَ لِيُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخْطِ اللَّهِ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ وَلَنْ
يُغْنِو عَنْهُ شَيْئًا. وَتَارِيخُنَا الْإِسْلَامِيُّ مَلِيءٌ بِقَصَصٍ أُولَئِكَ الْأَبْرَارُ الْأَحْفَيَاءُ الَّذِينَ كَانُوا كُنُوزًا
مَدْفُونَةً فِي الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا أَعْلَامًا مَشْهُورَةً عِنْدَ أَهْلِ السَّمَاءِ:

* سَيِّدُنَا أَوْيُسُ الْقَرْنِيُّ... مَجْهُولُ الْأَرْضِ، مَعْرُوفُ السَّمَاءِ: هَذَا التَّابِعُ الْجَلِيلُ، عَاشَ فِي
رَمَنِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَرَهُ، مَنَعَهُ بِرُهْ بِأَمْمِهِ مِنْ شَرْفِ الصُّحْبَةِ. لَقْدْ قَالَ عَنْهُ سَيِّدِنَا
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِسَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: "إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ".

* سَيِّدُنَا بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ... صَوْتُ تَسْمَعُهُ الْجَنَّةُ: عَبْدُ حَبْشِيُّ كَانَ يُعَذَّبُ فِي رَمْضَاءِ مَكَّةَ،
فَرَفَعَهُ اللَّهُ بِإِيمَانِهِ، وَجَعَلَهُ مُؤْذِنَ سَيِّدِ الْخَلْقِ ﷺ، وَقَالَ لَهُ: "يَا بِلَالُ، حَدَّثْنِي بِأَرْجَحِ عَمَلِ
عَمِيلَتِهِ فِي الْإِسْلَامِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ".

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: كَيْفَ نَكُونُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاءِ؟

لِكَيْ لَا يَظَلَّ هَذَا الْكَلَامُ مُجَرَّدًا حَادِيثًا نَتَاثِرُ بِهَا لَحْظَةً ثُمَّ نَنْسَاهَا، فَإِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى أَنْ نَكُونَ
مَعْرُوفِينَ فِي السَّمَاءِ يَتَطَلَّبُ مِنَّا خُطُواتٍ عَمَلِيَّةً:

* أصلح سيرتك: أجعل همك الأكبر إصلاح ما في القلب، فنظر الله إلى القلوب لا إلى الصور. قال ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ".

* أجعل لك خبيئة من عمل صالح: أجعل بيتك وبيت الله عبادة في السر لا يعلمها أحد من خلقه؛ كركعات في جوف الليل، أو صدقة تخفيها حتى لا تعلم شمالك ما تنفق يمينك، أو ذكر واستغفار وانت خالي بربك. فهذه الحياة هي كنزك الحقيقي.

* لا تنتظرك شئاء من أحد: عود نفسك على أن تعمل لوجه الله فقط. فإذا أتي المدح فهو من فضل الله، وإذا لم يأتي فلا يضرك، فأنت تعامل ربياً كريماً لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

* اهتم بمن لا يهتم به الناس: تفقد الفقراء، وامسح رأس اليتيم، وصل الأرحام المقطوعة، وكف عنًا للضعيف. فإن محبة أهل السماء تنال بالرحمة بأهل الأرض. فلتكن غايتنا أن نصلح ما بيننا وبين الله، فإذا صلحت العلاقة مع الخالق، أصلح الله لنا علاقتنا بالخلق، وألقى محبتنا في قلوبهم. وبالله تعالى التوفيق.

١٢. موازين السماء: حين يتكلم العدل ويفرض الفضل

الحمد لله القديم، الذي قامت بعدله السماوات والأرض، وخضعت لحكمه الرقاب، وجعل الرجعى إليه ليفصل بين العباد. والصلوة والسلام على سيدنا محمد، صاحب الشفاعة العظمى يوم الورود، وعلى آله وصحبه أهل الثقى والجود.

أيها السادة الكرام: إن النفس البشرية تتوق بفطرتها إلى العدل، وتتغافل من الظلم. ولكن عدل الدنيا قد يشوبه النقص، وقد يغلط المجرم فيها من عقابه، أو يبخس المحسن فيها حقه. هنا، تأتي آية من كتاب الله، لتضع النقاط على الحروف، وتطمئن كل قلب بإن الحساب الختامي بيده من لا يغفل ولا ينام.

يقول ربنا جل في علاء: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَحْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَحْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (التاج: ٣١).

إنها ليست مجرد إخبار، بل هي "قسم إلهي" مضمونه أن الملك كله لله، وأن الغاية من هذا الملك هي إقامة هذا الجزاء.

أيها السادة الكرام: لطائف العدل والفضل

دعونا نغوص في أعماق هذه الكلمات الربانية لنسترخرج دررها:

* الدّقّةُ في المُقاِبَلَةِ: قَابَلَ اللَّهُ بَيْنَ "الإِسَاعَةِ" وَ "الإِحْسَانِ"، وَلَمْ يَقُلْ "الَّذِينَ كَفَرُوا" وَ "الَّذِينَ آمَنُوا"، لِيُشْمَلَ الْجَرَاءُ كُلُّ عَمَلٍ؛ فَكُلُّ إِسَاعَةٍ لَهَا جَزَاءُ، وَكُلُّ إِحْسَانٍ لَهُ ثَوَابٌ.

* عَدْلُ "البَاءِ" في (بِمَا عَمِلُوا): هَذِهِ البَاءُ هي بَاءُ "السَّبَبِيَّةِ" وَ "المُقاِبَلَةِ". أَيْ أَنَّ عِقَابَ الْمُسِيءِ يَكُونُ بِمِقْدَارِ عَمَلِهِ السَّيِّئَ فَقَطْ، لَا ظُلْمٌ وَلَا زِيادةً. إِنَّهُ مِيزَانُ الدَّرَّةِ: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ﴾.

* فَضْلُ "البَاءِ" في (بِالْحُسْنَى): أَمَّا هُنَّا، فَالْبَاءُ لِلتَّعْدِيَةِ إِلَى مَا هُوَ أَعْظَمُ. لَمْ يَقُلْ "بِمَا عَمِلُوا" كَمَا قَالَ مَعَ الْمُسِيءِ، لِأَنَّ عَمَلَ الْمُحْسِنِ -مَهْمَا عَظِيمًا- لَا يُوازِي نِعَمَ اللَّهِ، وَلَا يَسْتَحِقُ بِذَاتِهِ الْجَنَّةَ. إِنَّمَا الْجَزَاءُ هُنَّا "بِالْحُسْنَى" أَيْ بِالطَّرِيقَةِ الْحُسْنَى، وَهِيَ الْفَضْلُ وَالرِّيَادَةُ وَالْجَنَّةُ الَّتِي فِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: "الَّذِينَ أَحْسَنُوا"... مَنْ هُمْ؟

الإِحْسَانُ هُنَّا لَيْسَ مُجَرَّدَ تَزَكِّيَ الْمَعَاصِي الظَّاهِرَةِ، بَلْ هُوَ مَقَامٌ رَفِيعٌ، وَصَفَّهُ الْحَقُّ فِي الْآيَةِ الَّتِي تَلِيهَا مُبَاشِرَةً: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (النَّجْمُ: ٣٢).

إِنَّهُمْ بَشَرٌ يُخْطِلُونَ، قَدْ يَقَعُونَ فِي "اللَّمَمِ" (الصَّغَائِيرِ)، لَكِنَّهُمْ لَا يُصْرُونَ عَلَيْهَا، وَسُرْعَانَ مَا يَعُودُونَ إِلَى رِحَابِ "وَاسِعِ الْمَغْفِرَةِ". إِحْسَانُهُمْ لَيْسَ عِصْمَةً، بَلْ هُوَ "تَوْبَةٌ مُسْتَمِرَةٌ" وَمُرَاقِبَةٌ دَائِمَةٌ لِلَّهِ.

لَقَدْ بَكَ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ وَاضِعُ رَأْسِهِ فِي حِجْرِ رَوْجَتِهِ، فَبَكَتْ لِبُكَائِهِ. فَقَالَ لَهَا: "مَا يُبَكِّيكِ؟" قَالَتْ: "رَأَيْتُكَ تَبْكِي فَبَكَيْتُ". قَالَ: "إِنِّي ذَكَرْتُ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتَّمًا مَقْضِيًّا﴾، فَلَا أَدْرِي أَنْجُو مِنْهَا أَمْ لَا؟!".

هَذَا هُوَ حَالُ الْمُحْسِنِينَ؛ قُلُوبُهُمْ وَجْلَهُ رَغْمَ إِحْسَانِهِمْ، لِأَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ جَلَالَ مَنْ يُعَالِمُونَ.

خَاتِمَةُ: بَيْنَ الْحَوْفِ وَالرَّجَاءِ: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةُ، يَا سَادَةُ، تَجْعَلُ الْمُؤْمِنَ يَطِيرُ إِلَى اللَّهِ بِجَنَاحِينِ: جَنَاحُ "الْحَوْفِ" مِنْ عَدْلِهِ إِنْ أَسَاءَ، فَيَرْتَدُ عَنِ الظُّلْمِ وَالْمَعْصِيَةِ.

وَجَنَاحُ "الرَّجَاءِ" في فَضْلِهِ إِنْ أَحْسَنَ، فَيَسْتَشْطُ لِلطَّاغَةِ وَيَسْتَبْشِرُ بِالْخَيْرِ.

فَلْنُحَاسِبْ أَنفُسَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا قَبْلَ أَنْ نَقْفَ بَيْنَ يَدَيْ مَنْ لَا تَحْفَى عَلَيْهِ خَافِيَّةُ، وَلْنَسَأْلُهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَنَا مِمَّنْ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْهُ الْحُسْنَى. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

١٣. دَوَاءُ الْقَلْقِ: كَيْفَ نُطْفِئُ نَارَ التَّفْكِيرِ الْمُفْرِطِ؟

الحمدُ للهِ الَّذِي جَعَلَ ذِكْرَهُ طَمَانِيَّةً لِلْقُلُوبِ، وَأَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَى عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَثْبُتوا، وَجَعَلَ التَّوْكِلَ عَلَيْهِ مَخْرَجاً مِنْ كُلِّ ضِيقٍ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي عَلَمَنَا كَيْفَ نُواجِهُ الْهَمَّ وَالْحَرَقَ بِالدُّعَاءِ وَالْيَقِينِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَاحِبِهِ أَهْلِ الرَّضَا وَالْتَّسْلِيمِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: لَوْ نَظَرْنَا الْيَوْمَ إِلَى حَالِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، لَوَجَدْنَا أَنْفُسًا قَلِيقَةً وَقُلُوبًا مُضْطَرِبَةً. لَقَدْ أَصْبَحْنَا نَعِيشُ فِي عَضْرٍ تَسَارَعُ فِيهِ الْأَحْدَاثُ، وَتَكَاثَرُ فِيهِ الْمَشَاغِلُ، وَتُلْحُ فِيهِ مُطَالِبُ الدُّنْيَا.

أَصْبَحَ الْإِنْسَانُ يَقْضِي يَوْمَهُ يَلْهُثُ وَرَاءَ الرِّزْقِ، وَيُقْلِبُ بَصَرَهُ فِي شَاشَاتٍ لَا تَنَامُ، تُطَارِدُهُ الْأَخْبَارُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَتُحَاصِرُهُ الْمُقَارَنَاتُ مَعَ حَيَاةِ الْآخَرِينَ.

فِي خِصْمٍ هَذَا الصَّحِيجُ، أَصْبَحَ "التَّفْكِيرُ الْمُفْرِطُ" دَاءً يُوَرِّقُ الْكَثِيرِينَ. يَتَقَلَّبُ الْإِنْسَانُ فِي فِرَاشِهِ، وَعَقْلُهُ لَا يَنَامُ؛ يَجْتَرُ هُمُومَ الْمَاضِي الَّذِي أُنْقَضَى، وَيَسْتَجْلِبُ مَخَاوِفَ الْمُسْتَقْبَلِ الَّذِي لَمْ يَأْتِ بَعْدُ.

هَذَا "التَّفْكِيرُ الرَّائِدُ" هُوَ فَحْ مَنْصُوبٌ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ، يُرِيدُ أَنْ يَسْلُبَهُ أَعْلَى مَا يَمْلِكُ: السَّكِينَةُ وَالطَّمَانِيَّةُ.

إِنَّ الشَّيْطَانَ، يَا سَادَةُ، قَدْ أَفْسَمَ أَنْ يَجْلِبَ لَنَا الْحُرْنَ. قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَهُرُّنَ الَّذِينَ آمَنُوا...﴾. وَأَعْظَمُ طَرِيقٍ لِلْحُرْنِ هُوَ أَنْ يَجْعَلَ الْعَبْدَ يَدُورُ فِي حَلَقَةٍ مُفْرَغَةٍ مِنَ الْوَسَائِسِ وَالْأَوْهَامِ، فَيَنْسَى حَاضِرَهُ، وَيُضَيِّعُ يَوْمَهُ، وَيُهْمِلُ عِبَادَتَهُ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: دَوَاءُ مِنَ السُّنَّةِ وَالْقُرْآنِ: إِنَّ دِينَنَا لَمْ يَرُكِ هَذَا الدَّاءَ بِلَا دَوَاءٍ. بَلْ قَدَّمَ لَنَا مَنْهَجًا عَمَلِيًّا لِقْطَعِ هَذِهِ السَّلِسَلَةِ مِنَ الْقَلْقِ:

* الدَّوَاءُ الْأَوَّلُ: قَطْعُ الْفِكْرَةِ (فَلَيْتَهُ): لَقَدْ جَاءَ الصَّحَابَةُ إِلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَشْكُونَ مَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ مِنْ وَسَائِسَ عَظِيمَةٍ. فَقَالَ لَهُمُ الْمَنْهَاجُ الْوَاضِحُ: "فَإِذَا بَلَغَهُ فَلَيْسَتِعِدُ بِاللَّهِ وَلَيْتَهُ" (رَوَاهُ مُسْلِمٌ).

الْأَمْرُ هُنَا "وَلَيْتَهُ"! أَيْ: لَا تُكْمِلْ، لَا تُحَلِّلْ، لَا تَسْتَرِسلْ مَعَ الْفِكْرَةِ. قِفْ. اسْتَعِدْ بِاللَّهِ مِنْهَا، وَأَشْغَلْ نَفْسَكَ بِشَيْءٍ أَخْرَى.

* الدَّوَاءُ الثَّانِي: مَلْءُ الْفَرَاغِ بِالذِّكْرِ: إِنَّ الْقَلْقَ لَا يَسْكُنُ قَلْبًا عَامِرًا بِذِكْرِ اللَّهِ. فَالْعَقْلُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ فَارِغاً؛ إِمَّا أَنْ تَشْغُلَهُ بِالْحَقِّ، وَالْأَنْ شَغَلَكَ بِالْبَاطِلِ. وَالْحَلُّ مُبَاشِرٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَظْمَئِنُ الْقُلُوبُ﴾. حِينَ يَبْدَأُ الْهَمُّ، ابْدَأْ أَنْتَ بِالذِّكْرِ.

* الدَّوَاءُ التَّالِثُ: الْيَقِينُ بِالْمَقْدُورِ: كَانَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَعِيدُ بِاللَّهِ كُلَّ صَبَاحٍ وَمَسَاءً فَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَرَنِ..." (رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ). "الْحَرَنُ" عَلَى مَا فَاتَ، وَ "الْهَمُّ" مِمَّا هُوَ آتٍ. وَدَوَاءُ كُلِّهِمَا هُوَ التَّسْلِيمُ. فَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَحْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ.

وَقَدْ ضَرَبَ لَنَا سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْمَثَلَ فِي الرَّاحَةِ النَّفْسِيَّةِ حِينَ قَالَ: "إِنِّي لَا أَحْمِلُ هَمَّ الْإِجَابَةِ، وَلَكِنْ أَحْمِلُ هَمَ الدُّعَاءِ". أَيْ أَنَّ عَقْلَهُ مُنْشَغَلٌ بِ"وَاجِهِهِ" (وَهُوَ الدُّعَاءُ)، وَلَيْسَ مُنْشَغَلًا بِ"قَلْقِ النَّتِيْجَةِ" (وَهِيَ الْإِجَابَةُ) لِأَنَّهَا بِيَدِ اللَّهِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: وَصَائِيَا عَمَلِيَّةٌ لِرَاحَةِ الْبَالِ

وَلِكِيْ نُطَبِّقَ هَذَا الدَّوَاءَ، هَذِهِ وَصَائِيَا عَمَلِيَّةٌ تُعِينُ عَلَى طَرِيدِ الْقَلْقِ:

* خَصْصُنَ وَقْتًا لِلتَّدْبِيرِ لِلْوَسْوَسَةِ: لَا تَثْرُكْ عَقْلَكَ يَسْرُحُ طَوَالَ الْيَوْمِ. اجْعَلْ لِلتَّفْكِيرِ وَقْتًا مُحَدَّدًا (مِثْلُ: بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ)، تَكْتُبُ فِيهِ مَا يُقْلِقُكَ، وَتَضَعُ لَهُ خُطَّةً إِنْ كَانَ بِيَدِكَ، أَوْ تُفَوِّضُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ كَانَ فَوْقَ طَاقَتِكَ.

* عِشْ فِي حُدُودِ يَوْمِكَ: لَقَدْ عَلِمْنَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَقُولَ: "أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ"، وَأَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ خَيْرًا "هَذَا الْيَوْمُ". لَا تَحْمِلْ هَمَ الْغَدِ عَلَى هَمِ الْيَوْمِ. فَإِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ.

* تَحْرَكْ وَلَا تَرْكَنْ: إِنَّ الْفَرَاغَ وَالْجُمُودَ هُمَا أَرْضُ خِصْبَةِ لِلتَّفْكِيرِ الْمُفْرِطِ. قُمْ فَتَوَضَّأْ، صَلِّ رَكْعَتَيْنِ، امْشِ قَلِيلًا، اقْرَا كِتَابًا، تَحَدَّثْ مَعَ صَالِحٍ. فَالْحَرَكَةُ تَقْطَعُ تَسْلُسُلَ الْأَفْكَارِ.

* جَالِسُ أَهْلِ الْيَقِينِ: ابْتَعِدْ عَمَّنْ يَبْثُونَ فِيَكَ الْقَلْقَ وَالسَّلْبِيَّةَ، وَابْحَثْ عَنْ صُحْبَةِ أَهْلِ الْطُّمَانِيَّةِ وَالرِّضَا، فَإِنَّ السَّكِينَةَ تَتَرَزَّلُ فِي مَجَالِسِهِمْ.

فَلْنَتَعَلَّمُ أَنْ نُدِيرَ أَفْكَارَنَا بِالْإِيمَانِ، وَنَقْطَعَ حِبَالَ الْوَسْوَاسِ بِالْإِسْتِعَاذَةِ، وَنَمَلَأُ قُلُوبَنَا بِالْذِكْرِ، وَنُسَلِّمُ أُمُورَنَا كُلَّهَا لِلرَّبِّ الْكَرِيمِ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

٤. عَرَفْتَ فَالْزَّمْ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي يَقْذِفُ النُّورَ فِي قُلُوبِ أُولِيَّائِهِ فَيُبَصِّرُونَ، وَيَكْشِفُ لَهُمْ عَنْ حَقَائِقِ الْأُمُورِ فِيْوِقُنُونَ، وَيُذِيقُهُمْ حلاوةَ الْإِيمَانِ فَيَثْبُتونَ. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي كَانَ يَدْعُو فِيْقُولُ: "اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا" (رَوَاهُ الْبَخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ)، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ ذَاقُوا فَعَرَفُوا، فَلَزِمُوا وَمَا انْحَرَفُوا.

أيها السادة الكرام: إن الإيمان ظاهرًا وباطنًا. ظاهره قول باللسان وعمل بالأركان، وهذا حال عموم المؤمنين. أمّا باطنه وحقيقةه، فهو نور يقذفه الله في القلب، ويقيّن راسخ يغيّر نظرَ العبد للكون كله. هو مقام لا يُنال بكترةِ العلم فقط، بل بصدق التوجّه وصفاءِ السريرَة.

إنها لحظةٌ فارقةٌ ينتقل فيها العبد من "علم اليقين" إلى "عيون اليقين". يسألُ فيها الصادق نفسه: ما هي حقيقة إيماني؟ فيأتيه الجوابُ من داخل قلبه، لا من حبر كتبه.

أيها السادة الكرام: حقيقة المعرفة: إن لهذا النور الإيماني علاماتٍ تدلُّ عليه، وأثراً تشهدُ لصاحبِه:

العلامة الأولى: هوانُ الدنيا على القلب: أولُ ما يُشرقُ به هذا النور هو إطفاء وهج الدنيا في عينِ صاحبِه. حين يرى العبد الأمور على حقيقتها، تغزِّف نفسه عن هذه الفانية. لا يعني هذا ترك العمل أو السعي، فإنَّ يدَ المؤمن تعمل وتكتسب، ولكنَّ قلبه لا يتعلّق. يستوي عندَه حينئذ ذهبُها وحجرُها؛ لأنَّه يعلم أنَّ كلَّهما إلى زوالٍ.

وهذا حال سيدنا الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، حين بعثَ إليه تاجرُ بالافِ الدراهِم، فوزعها كَلَّها في يومِه، ولم يُبقي لبيته شيئاً. فقيل له، فقال: (إنَّما مثلي ومثلُ الدنيا كمثلِ راكِب استظلَ تحت شجرةٍ ثم قام وتركَها). لقد استوى عندَه العطاءُ والمنعُ، لوجودِ ما هو أعظمُ في قلبه.

وقد صدقَ القائلُ حين وصفها:

إِنَّمَا الدُّنْيَا قَنَاءُ *** لَيْسَ لِلْدُنْيَا ثُبُوتٌ

إِنَّمَا الدُّنْيَا كَبَيْتٍ *** نَسَجَتُهُ الْعَنْكَبُوتُ

العلامة الثانية: استحضارُ الغيبِ كأنَّه شهادةً:

إذا صفا القلبُ، أصبح كالمرآءِ المجلوَّة التي تتعكسُ عليها أنوارُ الغيبِ. فينتقلُ المؤمنُ من دائرةِ "السماع" عن الجنة والنار، إلى دائرةِ "المشاهدة" القلبية. وهذا هو عين مقام "الإحسان" الذي وصفَه سيدنا رسول الله ﷺ حين سأله سيدنا جبريل عليه السلام: "ما الإحسان؟" قال: أن تَعبدَ الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك" (رواه مسلم).

لقد كان السلفُ الصالحُ يعيشون بهذه الحقيقة؛ فهذا سيدنا عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه يقول: "لو كُشفَ الغطاءُ ما أردَدتُ يقينًا".

وهذا سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وجده يوماً يبكي، فسألوه، فقال: "كنت مفكراً في أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وفي أهل النار كيف يصطرخون فيها، ثم بكى".

وقد سئل سيدنا الإمام الجنيد رضي الله عنه: بم ينال العبد هذه الدرجة؟ فقال: "أن تموت عنك، وتحيا به".

وقال الحسن البصري رحمه الله: "والله ما صدق عبد النار قط إلا ضاقت عليه الأرض بما رحبت".

أيها السادة الكرام: "فالزم" إن الوصول إلى هذه المعرفة هبة ربانية، ونور إلهي، ولكنها ليست نهاية الطريق، بل هي بداية المسؤولية. فإن من عرف، كان لزاماً عليه أن يلزم.

"عَرَفْتَ فَالْزَمْ" ... يا له من أمر جامع!
أمر بالثبات على هذا النور، والحفاظ على هذا اليقين.

ولهذا الفرق الدقيق بين المعرفة الحقيقة ومجرد التجربة، يحيى عن أحد العلماء الكبار أنه كان يأخذ عطاهة فيوزعه كله على الفقراء وهو في طريقه إلى البيت، فإذا عاد وجد المال كما هو تحت وسادته. فرأه ابن أخيه، ففعلاً مثله؛ وزع عطاهه وعاد فلم يجد شيئاً! فذهب يسأل عمه، فقال له الكلمة الفاصلة: "يا بني، أنا أصنعها بيقيين، وأنت تصنعها بتجربة، والله لا يجرب معه!".

فالبيتين هو المعرفة التي تقتضي اللزوم. "فالزم" يعني: دائم على ما أنت عليه من الطاعة.
"فالزم" يعني: جاهد نفسك وهواك لتبقى على هذه البصيرة.

إنه عبد قد اختصه الله بالنور، فعليه أن يحفظ هذا النور بالتقوى والمداومة على العمل الصالح.

فنسأل الله العظيم أن يرزقنا قلوبًا مُنورًا، ويقينا صادقاً، وأن يعيننا على أن نلزم طاعته حتى نلقاه وهو راضٍ عنا. وبالله تعالى التوفيق.

١٥ . يا هارباً من الرحيم.. إلى أين؟

بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، الْمَبْعُوتُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ، وَأَمَّا لِلْمُذْنِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا الْأَخْ الْحَبِيبُ: يَا مَنْ أَتَعْبَثُكَ دُرُوبُ الْحَيَاةِ، وَأَنْقَلَتْ كَاهِلَكَ الدُّنُوبُ، وَشَعَرْتُ رُوحَكَ بِالْوَحْشَةِ بَعِيدًا عَنْ مَوْلَاهَا.. إِلَيْكَ أَكْتُبُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ، لَا بِلِسَانِ الْوَاعِظِ الْمُعَاتِبِ، بَلْ بِلِسَانِ الْأَخِ الْمُحِبِّ الْمُشْفِقِ.

هَلْ تَطْنُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَتَنَظِّرُ زَلَّتَكَ لِيُعَذِّبَكَ؟ حَاشَاهُ وَهُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ!

هَلْ تَعْتَقِدُ أَنَّ دُنُوبَكَ أَكْبَرُ مِنْ مَغْفِرَتِهِ؟ إِذْنُ أَنْتَ لَمْ تَعْرِفْهُ حَقَّ الْمَعْرِفَةِ.

اسْمَعْ إِلَى هَذَا النَّدَاءِ الرَّبَّانِيِّ الَّذِي يَخْلُغُ الْقُلُوبَ مِنْ فَرْطِ الرَّحْمَةِ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُّسِيِّ: "يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيهِ وَلَا أَبَالِي.. يَا ابْنَ آدَمَ، لَوْ بَلَغَتْ دُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلَا أَبَالِي".

"وَلَا أَبَالِي"! أَيْ لَا أَكْتُبُ لِعَظِيمِ هَذِهِ الدُّنُوبِ وَكُثُرَتِهَا، لِأَنَّ عَفْوِيَّ أَعْظَمُ، وَرَحْمَتِيَّ أَوْسَعُ.

أَلْمَ تَسْمَعْ قِصَّةَ ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي أَسْرَفَ عَلَى نَفْسِهِ؟ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، شَيْخٌ كَبِيرٌ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنْ شِدَّةِ الْكِبَرِ، وَهُوَ يَتَوَكَّلُ عَلَى عَصَاهُ، وَقَالَ: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، رَجُلٌ عَمِلَ الدُّنُوبَ كُلَّهَا، وَلَمْ يَتُرُكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا اقْتَرَفَهَا (أَيْ لَمْ يَتُرُكْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً)، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟".

تَخَيَّلْ مَعِي الْمَشَهَدَ.. رَجُلٌ غَارِقٌ فِي الْمَعَاصِي طِوَالَ عُمْرِهِ! فَنَظَرَ إِلَيْهِ الرَّحْمَةُ الْمُهَدَّأُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ لَهُ: "أَتَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؟" قَالَ: "نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ" قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يُبَدِّلُ لَكَ سَيِّئَاتِكَ كُلَّهَا حَسَنَاتٍ" فَدُهِلَ الرَّجُلُ وَقَالَ: "وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي يَا رَسُولَ اللَّهِ؟!" (يَعْنِي حَقَّ الْكَبَائِرِ وَالْمُصَابِبِ؟) فَقَالَ الْحَبِيبُ الْمُضَطَّفُ: "وَغَدَرَاتُكَ وَفَجَرَاتُكَ" فَوَلَى الرَّجُلُ وَهُوَ يَبْكِي وَيُكَبِّرُ: "اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ"، حَتَّى تَوَارَى عَنِ الْأَنْظَارِ.

يَا مَنْ تَشْعُرُ بِالْبُعْدِ.. إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَفْرَحَ بِتَوْبَتِكَ مِنْكَ! نَعْمَ، هُوَ الْغَيْنِيُّ عَنْكَ، لَكِنَّهُ يُحِبُّ عَوْدَتِكَ.

يَقُولُ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اللَّهُ أَشَدُ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِيَّةٍ مَهْلَكَةٍ، مَعْهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ (صَاعَثُ)، فَظَلَّبَهَا حَقَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ.." فَقَالَ: أَرْجِعْ إِلَى مَكَانِي الَّذِي كُنْتُ فِيهِ فَنَامُ حَقَّى أَمْوَاتَ.. فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِدِهِ لِيُمُوتَ، فَاسْتَيقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا رَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ.. فَاللَّهُ أَشَدُ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ وَزَادَهُ".

هَلْ رَأَيْتَ حُبًّا أَعْظَمَ مِنْ هَذَا؟ رَبُّ الْعِرَّةِ يَفْرُحُ بِكَ أَنْتَ! أَنْتَ الَّذِي تَرَى نَفْسَكَ بَعِيدًا وَصَغِيرًا بِدُنُوبِكَ، هُوَ يَرَاكَ غَالِيًّا إِنْ عُدْتَ إِلَيْهِ.

فَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ الْآنَ؟ لَا تَقُلْ: "قَلِيلٌ قَاسٍ" .. فَذِكْرُ اللَّهِ يُلْيِنُ الْحَدِيدَ.
لَا تَقُلْ: "سَأَعُودُ لِلَّذِنِ" .. عُدْ إِلَيْهِ الْآنَ، وَإِنْ أَذْنَبْتَ فَعُدْ مَرَّةً أُخْرَى، فَهُوَ الْغَفَارُ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى.

لَا تَنْتَظِرْ لَحْظَةً مُنَاسِبَةً، فَالْأَنْقَاصُ مَعْدُودَةُ، وَبَابُهُ مَفْتُوحٌ لَا يُغْلِقُ أَبَدًا فِي وَجْهِ قَاصِدٍ، لَا بَوَابَ لَهُ وَلَا حَاجِبَ.

خُطْوَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَطْ... قُمْ الْآنَ، تَوَضَّأْ، وَصَلَّ رَكْعَتَيْنِ فِي جَوْفِ الْلَّيْلِ أَوْ فِي خَلْوَةِ، وَمَرْغُ جَبَهَتَكَ عَلَى الْأَرْضِ، وَقُلْ لَهُ بِصِدْقٍ: "يَا رَبِّ.." عُدْتُ إِلَيْكَ، فَاقْبَلْنِي.. أَنَا عَبْدُكَ الْأَبِقُ قَدْ جَاءَكَ، أَنَا الْفَقِيرُ الَّذِي أَغْنَيْتَهُ فَعَصَاكَ، وَسَتَرْتَهُ فَفَجَرَ.. وَهَا أَنَا دَا بَيْنَ يَدَيْكَ، لَا مَلْجَأً وَلَا مَنْجَحاً مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ" وَاللَّهُ، لَنْ يَرُدَّكَ صِفْرًا أَبَدًا.

اللَّهُمَّ يَا مُقْلِبَ الْقُلُوبِ، رُدْنَا إِلَيْكَ رَدًّا جَمِيلًا، وَلَا تَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ فِي رُزْقِكَ أَحَدًا سِوَاكَ، وَاجْعَلْنَا أَفْقَرَ حَلْقِكَ إِلَيْكَ، وَأَغْنَى حَلْقِكَ بِكَ.. آمِينَ، وَصَلَّ اللَّهُمَّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمٌ.

٦. لَوْ عَلِمْتَ كَيْفَ يُحِبُّكَ.. لَدَابَ قَلْبَكَ شَوْقًا إِلَيْهِ
بِسْمِ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى إِمَامِ الْمُحِبِّينَ، وَسَيِّدِ الْعَارِفِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: أَيُّهَا الْمُحِبُّ: هَلْ سَأَلْتَ نَفْسَكَ يَوْمًا: كَيْفَ يَرَانِي اللَّهُ؟ هَلْ يَشْغُلُكَ الْحَوْفُ مِنْ
عِقَابِهِ عَنِ التَّلَذُّذِ بِحُبِّهِ؟

دَعْنِي أَخْدُ بِيَدِكَ الْيَوْمِ لِنَنْتَظِرَ نَظْرَةً مُغَايِرَةً، لِتَرَى "الْوَدُودَ" حَلَّ جَلَالُهُ، الَّذِي يَتَوَدَّدُ إِلَيْ
عِبَادِهِ بِالنَّعِيمِ، وَيَتَحَبَّبُ إِلَيْهِمْ بِالْعَطَايَا، وَهُمْ يَتَبَغَّضُونَ إِلَيْهِ بِالْمَعَاصِي!

أَتَدْرِي كُمْ هُوَ رَحِيمُكَ؟ تَأْمَلْ مَعِي هَذَا الْمَشْهَدَ التَّبَوِيَّ الْبَاكِي.. فِي سَبْئِي مِنْ سَبَابِيَا الْمَعَارِكِ،
رَأَى الصَّحَابَةُ امْرَأَةً مَلْهُوْفَةً تَجْرِي وَتَبْحَثُ بِجُنُونٍ بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى وَجَدَتْ صَبِيًّا لَهَا،
فَأَخْدَثَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ (مِنْ شِدَّةِ الْحَوْفِ وَالْحُبِّ)، فَنَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ إِلَى الصَّحَابَةِ وَقَالَ: "أَتُرُونَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟" قَالُوا: لَا وَاللَّهِ وَهِيَ
تَقْدِرُ عَلَى أَلَا تَطْرَحُهُ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَةً تَفِيضُ أَمَانًا: "لَهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ

هَذِهِ بِوَلِدِهَا" ، يَا اللَّهُ! هَلْ تَسْتَوِعُ بُ؟ حُبُّ اللَّهِ لَكَ، وَحُرْفُهُ عَلَيْكَ، وَرَحْمَتُهُ بِكَ، أَكْبَرُ مِنْ حُبِّ أَمْكَ الَّتِي حَمَلْتُكَ وَأَرْضَعْتُكَ! فَكَيْفَ تَهْرُبُ مِمَّنْ هُوَ أَرْحَمُ بِكَ مِنْ نَفْسِكَ؟

هُوَ الَّذِي يَبْدأُ بِالْوَصْلِ.. الْمُلُوكُ فِي الدُّنْيَا، إِذَا أَرْدَتَ الدُّخُولَ عَلَيْهِمْ، وَقَفَتِ الْبَابِ سَاعَاتٍ، وَقَدْ يُؤْذَنُ لَكَ أَوْ لَا. أَمَّا مَلِكُ الْمُلُوكِ، فَهُوَ الَّذِي يَتَنَزَّلُ إِلَيْكَ كُلَّ لَيْلَةٍ!

يَنْتَظِرُكَ أَنْتَ.. يَنْتَظِرُ أَنْ تَخْلُوْ بِهِ.. يُنَادِي فِي جَوْفِ الْلَّيْلِ وَأَنْتَ نَائِمٌ: "مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلِنِي فَأَعْطِيهِ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرِنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟".

يَعْرِضُ عَلَيْكَ حَوَائِجَكَ، وَيَعْرِضُ عَلَيْكَ مَغْفِرَتَهُ، قَبْلَ أَنْ تَطْلُبَهَا! أَيْوْجَدْ مُحِبٌّ يَفْعَلُ هَذَا مَعَ مَحْبُوبِهِ سِوَاهُ؟ يُعْطِيَكَ عَلَى النِّيَّةِ مَا لَا يُعْطِيَهُ عَلَى الْعَمَلِ..

مِنْ كَمَالِ حُبِّهِ لَكَ، أَنَّهُ جَعَلَ "هَمَّكَ" بِالْخَيْرِ حَسَنَةً! يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ: "إِذَا هَمَ عَبْدِي بِحَسَنَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِعَمَائَةٍ ضِعْفٍ.. وَإِذَا هَمَ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ أَكُتبْهَا شَيْئًا" (وَفِي رِوَايَةِ: كَتَبْتُهَا لَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً)، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبْتُهَا سَيِّئَةً وَاحِدَةً" ، ا�ْظُرْ إِلَى الْمِيزَانِ.. الْهُمْ بِالْخَيْرِ مَحْسُوبُ، وَالْهُمْ بِالشَّرِّ مَعْفُوْ عَنْهُ بَلْ وَمَاجُورُ إِنْ تَرَكْتُهُ! إِنَّهُ يُرِيدُ لَكَ التَّجَاهَةَ بِأَيِّ طَرِيقٍ.

يَا صَاحِبَ الْقُلْبِ الْبَعِيدِ .. لَوْ عَلِمْتَ كَيْفَ يَدْفَعُ عَنْكَ الْبَلَاءَ وَأَنْتَ لَا تَشْعُرُ.. لَدَابَ قَلْبُكَ حُبًّا.

كُمْ مِنْ مَرَّةٍ سَاقَ إِلَيْكَ رِزْقًا لَمْ تَحْتَسِبْهُ؟ كُمْ مِنْ مَرَّةٍ سَتَرَكَ وَأَنْتَ تَعْصِيَهُ، وَكَانَ قَادِرًا عَلَى أَنْ يَفْصَحَكَ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ؟

يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: "لَوْ كَشَفَ اللَّهُ الْغِطَاءَ لِعَبْدِهِ، وَأَظْهَرَ لَهُ كَيْفَ يُدَبِّرُ لَهُ أُمُورَهُ، وَكَيْفَ أَنَّ اللَّهَ أَحْرَصَ عَلَى مَصْلَحةِ الْعَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ، لَدَابَ قَلْبُ الْعَبْدِ مَحَبَّةُ اللَّهِ، وَلَتَقْطَعَ قَلْبُهُ شُكْرًا لِلَّهِ".

رِسَالَةُ خِتَامِيَّةٌ.. لَا تَعْبُدِ اللَّهَ بِجَسَدٍ حَاضِرٍ وَقَلْبٍ غَائِبٍ.. اعْبُدْهُ "حُبًّا".

قُلْ لَهُ فِي سُجُودِكَ الْيَوْمَ: "أَحِبُّكَ يَا رَبِّ.. أَحِبُّكَ لِأَنَّكَ خَلَقْتَنِي، وَأَحِبُّكَ لِأَنَّكَ سَتَرْتَنِي، وَأَحِبُّكَ لِأَنَّكَ رَزَقْتَنِي، وَأَحِبُّكَ لِأَنَّكَ صَبَرْتَ عَلَيَّ رَغْمَ تَفْصِيرِي".

جَرِّبْ أَنْ تُكَلِّمَهُ بِلُغَةِ الْحُبِّ، وَسَتَرِي كَيْفَ سَتَتَحَوَّلُ حَيَاكَ إِلَى جَنَّةِ قَبْلَ جَنَّةِ الْآخِرَةِ.
اللَّهُمَّ ارْزُقْنَا حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبَّ كُلِّ عَمَلٍ يُقَرِّبُنَا إِلَى حُبِّكَ، وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ عَلَى الظَّمَاءِ.. آمِينَ.

١٧ . وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا

الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي جَعَلَ بَرَكَةَ الْأَبْنَاءِ الصَّالِحِينَ تَمْتَدُ إِلَى الْأَبْنَاءِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي أَتَمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِمْ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَمْ يَذْكُرْ قِصَّةَ الْخَضِيرِ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَبْثًا، بَلْ هِيَ مِلْيَيْةٌ بِالْعِبَرِ وَالدُّرُوسِ الْعَظِيمَةِ. وَمِنْ أَعْظَمِ هَذِهِ الْعِبَرِ مَا وَرَدَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَتْرُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَنْبُلُغَا أَشْدَدَهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الْكَهْفُ: ٨٢).

تِلْكَ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ تُعَلَّمُنَا أَنَّ صَلَاحَ الْأَبِ لَا يَنْحَصِرُ أَثْرُهُ عَلَى شَخْصِهِ فَقَطْ، بَلْ يَمْتَدُ لِيَشْمَلَ دُرَيْتَهُ وَأَحْفَادَهُ مِنْ بَعْدِهِ. فَهَذَا الْكَثُرُ الَّذِي حُفِظَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ كَانَ بَرَكَةً وَجَزَاءً عَلَى صَلَاحِ أَبِيهِمَا الَّذِي مَاتَ وَلَمْ يُدْرِكْ صَغِيرِيْهِ. فَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حَفِظَ لَهُمَا حَقَّهُمَا فِي هَذَا الْكَثُرِ بِسَبِّبِ صَلَاحٍ وَتَقْوَى أَبِيهِمَا.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: إِنَّ الْأُبُوَّةَ الصَّالِحَةَ لَيُسْتُ مُجَرَّدَ وِرَاثَةً لِلْمَالِ، بَلْ هِيَ وِرَاثَةُ الْخُلُقِ وَالْقِيمِ. فَكُمْ مِنْ آبَاءٍ تَرَكُوا لِأَبْنَائِهِمْ ثَرَوَاتٍ طَائِلَةً، لَكِنَّهُمْ أَهْمَلُوا تَرِيَتَهُمْ عَلَى الصَّلَاحِ وَالتَّقْوَى، فَأَضَاعُوا أَبْنَاءُ الْمَالِ وَأَهْلَكُوا أَنفُسَهُمْ. وَكُمْ مِنْ آبَاءٍ تَرَكُوا لِأَبْنَائِهِمْ الْقَلِيلَ مِنَ الْمَالِ، لَكِنَّهُمْ غَرَسُوا فِيهِمْ حُبَّ اللَّهِ وَتَقْوَاهُ، فَبَارَكَ اللَّهُ لَهُمْ فِي قَلِيلِهِمْ وَحَفِظَ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَدُنْيَاهُمْ.

لَقَدْ كَانَ السَّلْفُ الصَّالِحُ يَرْوَنَ فِي صَلَاحِ الْأَبِ كَثِيرًا لِأَبْنَائِهِ، وَمِنْ قَصَصِهِمْ وَأَقْوَالِهِمْ فِي ذَلِكَ:

* قِصَّةُ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ: كَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ يَدْعُو لِأَبْنَائِهِ وَيَقُولُ: "إِنِّي لَأَجِدُ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ يُصْلِحُ لِلْعَبْدِ أَوْلَادَهُ بِصَالِحِهِ".

* وَقِصَّةُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: كَانَ يَقُولُ لِابْنِهِ: "يَا بُنْيَءَ، إِنِّي لَأُصْلِي مِنْ أَجْلِكَ". أَيْ: يُصْلِي وَيَتَعَبَّدُ وَيَجْتَهِدُ فِي الطَّاعَةِ رَجاءً أَنْ يَحْفَظَ اللَّهُ أَبْنَاءَهُ بِبِرَّةِ عَمَلِهِ الصَّالِحِ.

* وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: "كَانَ يُقَالُ: إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا كَانَ صَالِحًا، أَصْلَحَ اللَّهُ لَهُ فِي ذُرِّيَّتِهِ".

* كَانَ يُقَالُ أَنَّ رَجُلًا صَالِحًا عِنْدَمَا مَاتَ، وَجَدُوا فِي وَصِيَّتِهِ: "وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا". فَقَالُوا: "إِنَّهُ يُشَيرُ إِلَى أَنَّ اللَّهَ حَفِظَ أَبْنَائِهِ مِنْ بَعْدِهِ بِسَبِّبِ صَالِحِهِ".

* وَكَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ: "مَا أُرِيدُ أَنْ أَتُرُكَ لِأَبْنَائِي مَالًا كَثِيرًا، فَاللَّهُ الَّذِي حَفِظَهُمْ وَحَفِظَنِي قَبْلَهُمْ هُوَ الَّذِي سَيَحْفَظُهُمْ بَعْدِي".

وَلَقْدْ كَانَ السَّلَفُ الصَّالِحُ يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْمَبْدَأِ إِيمَانًا قَوِيًّا، حَتَّىٰ كَانُوا يَعْتَرِفُونَ صَلَاحَهُمْ دِرْعًا وَحِصْنًا لِأَبْنَائِهِمْ. وَمِنْ أَعْظَمِ الْقِصَصِ الَّتِي تَدْلُّ عَلَى ذَلِكَ مَا يُخْبَرُ عَنْ رَجُلٍ صَالِحٍ كَانَ يُرَبِّي أَبْنَاءَهُ عَلَى حُبِّ اللَّهِ وَخَشْيَتِهِ. وَفِي يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، بَيْنَمَا كَانَ الرَّجُلُ فِي سَفَرٍ، سَمِعَ أَنَّ بَيْتَهُ قُدْ هُدِمَ وَوَقَعَ عَلَى مَنْ فِيهِ. فَصَاحَ الرَّجُلُ بِصَوْتٍ عَالٍ: "يَا رَبَّاهُ، يَا اللَّهُ! إِنَّ بَيْتِي قُدْ وَقَعَ عَلَى أَوْلَادِي وَأَهْلِي، وَأَنْتَ الَّذِي أَمْرَتَنِي بِأَنْ أَكُونَ لَهُمْ أَبَا صَالِحًا، فَلَا تُضِغْ عَمَلِي وَصَالِحِي! يَا رَبَّاهُ، بِحَقِّ صَالِحِي وَتَقْوَايَ وَاجْتِهَادِي، احْفَظْ لِي أَوْلَادِي".

وَلَمْ يَمُرَّ وَقْتٌ طَوِيلٌ حَتَّىٰ جَاءَهُ رَجُلٌ مُهْرَعٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَبَشَّرَهُ بِأَنَّ أَوْلَادَهُ وَأَهْلَهُ قُدْ سَلَمُوا مِنْ تَحْتِ الرَّدْمِ، وَلَمْ يُصْبِبْ مِنْهُمْ أَحَدٌ بِأَذْيَ. فَتَعَجَّبَ الرَّجُلُ، وَسَأَلَ كَيْفَ نَجَوا، فَأَخْبَرَهُ أَهْلُ بَيْتِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي مَكَانٍ مِنَ الْبَيْتِ لَمْ يَهْدِمْ. فَعَلِمَ الرَّجُلُ أَنَّ هَذِهِ الْكَرَامَةُ إِنَّمَا هِيَ بِقُضْلِ صَالِحِهِ وَدُعَائِهِ لِأَبْنَائِهِ. فَبِصَالِحِ الْأَبِ، حَفِظَ اللَّهُ أَبْنَاءَهُ مِنَ الْهَلَاكِ، وَجَعَلَ لَهُمْ بَرَكَةً فِي عَمَلِهِ الصَّالِحِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: لِكَيْ نَكُونَ آبَاءَ صَالِحِينَ لِأَبْنَائِنَا، عَلَيْنَا أَنْ نَعْمَلَ عَلَى:

* تَقْوَى اللَّهُ: فَصَالَحُنَا هُوَ سَبَبُ بَرَكَةِ اللَّهِ فِي حَيَاةِ أَبْنَائِنَا.

* حُسْنِ التَّرْبِيةِ: فَلَيْسَ كُلُّ صَالِحٍ يُكُونُ بِدُونِ عَمَلٍ، فَالْأَبُ الصَّالِحُ يَعْمَلُ عَلَى تَرْبِيةِ أَبْنَائِهِ عَلَى الْخُلُقِ وَالدِّينِ.

* الْقُدُودَةُ الْحَسَنَةُ: فَالْأَبُ هُوَ أَوَّلُ مَعْلِمٍ فِي حَيَاةِ أَبْنَائِهِ، وَأَفْعَالُهُ هِيَ الَّتِي يَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَفْوَالِهِ.

إِنَّ صَالَحَ الْأَبَاءِ لَيْسَ مُجَرَّدَ عِبَادَةٍ، بَلْ هُوَ اسْتِثْمَارٌ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. قَالَ اللَّهُ الَّذِي حَفَظَ كَنْزَ الْيَتَيْمَيْنِ بِسَبَبِ صَالِحِ أَبِيهِمَا، سَيَحْفَظُ لَنَا أَبْنَاءَنَا وَأَحْفَادَنَا إِنْ كُنَّا مِنَ الصَّالِحِينَ. فَهَنِيئًا لِمَنْ غَرَسَ فِي قَلْبِهِ حُبًّا صَادِقًا لِلَّهِ وَعَمِلَ بِهِ، فَقَادَهُ هَذَا الْحُبُّ إِلَى أَنْ يَكُونَ أَبًا صَالِحًا، فَيَجْعَلُهُ اللَّهُ سَبَبًا فِي صَالَحِ ذُرِّيَّتِهِ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الباب الثالثُ

خطواتٌ على طريق النجاحِ

١٨. خطواتٌ على طريق النجاح (١): التخطيطُ والصبرُ

بقلم الشيخ أحمد إسماعيل الفشنـي

الحمدُ لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عداون إلا على الظالمين. وأشهدُ أن لا إله إلا الله ولئل الصالحين، شهادةً تذكرنا عند السؤال حجتنا، وتبصر على الصراط مُرورنا، وتزرونا يوم العطش الأكبر من حوض نبينا ﷺ. ونشهدُ أن سيدنا ونبياً وعظيمنا وقائداً سيدنا محمدًا ﷺ، شرخ الله صدره ورفع في العالمين ذكره. اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراط المستقيم، وعلى الله حق قدره ومقداره العظيم.

وبعدُ،

فإنَّ منْ أفضَلَ مَا ينبعِي أنْ يتعرَضَ لَهُ المُسْلِمُ هو كُلُّ مَا يُقرِبُهُ مِنَ النجاحِ والفلاحِ في حيَاتهِ. وقد يتساءلُ كثيرٌ مِنَ الأحبابِ الْكَرَامَ: كيفَ أَحَقُ النجاحِ والفلاحِ في حيَاتِي؟ وكيفَ أَصِلُّ إلى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ فلانٌ وفلانُ؟

وللإجابة عن هذا السؤال ينبعِي أنَّ ننظر لحياة سيدنا رسول الله ﷺ، فهو القدوة والأسوة في كل حيَاتِنَا. ولما تَبَعَتْ حيَاتُه ﷺ وَجَدَتْ عَوَالِمَ لِلنَّجَاحِ اهْتَمَّ بِهَا، منها:

أولاً: التخطيطُ الجيدُ وتحديدُ الأهدافِ:

مِنْ ذَلِكَ مَا حَدَثَ فِي رَحْلَةِ الْهِجْرَةِ التَّبَوَيَّةِ الْمُبَارَكَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ تَأَمَّلَ حَادِثَةَ الْهِجْرَةِ، وَرَأَى دِقَّةَ التخطيطِ فيها، وَدِقَّةَ الْأَخْذِ بِالأسْبَابِ مِنْ ابْتِدَائِهَا إِلَى انْتِهَائِهَا، يُدْرِكُ أَنَّ التخطيطَ المُسَدَّدَ بِالْوَحْيِ كَانَ مِنْ أَعْظَمِ أَهْدَافِهِ ﷺ.

فِعْنَدَمَا حَانَ وَقْتُ الْهِجْرَةِ، اهْتَمَ ﷺ بِالتَّنْظِيمِ وَالتَّخْطِيطِ الْجَيِّدِ حَتَّى تَمَّتْ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهٍ، رَغْمَ كُلِّ الصُّعُوبَاتِ وَالعَقَبَاتِ. وَمِنْ مَظَاهِرِ هَذَا التَّخْطِيطِ:

* اختيار الرفيق: جاءَ ﷺ إِلَى بَيْتِ سَيِّدِنَا أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ فِي وَقْتِ شَدِيدِ الْحَرِّ (وقْتُ الظَّهِيرَةِ)، وَهُوَ الْوَقْتُ الَّذِي لَا يَخْرُجُ فِيهِ أَحَدٌ، لِضَمَانِ السِّرِّيَّةِ.

* السِّرِّيَّةُ التَّالِمَةُ: أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُخْرِجَ مَنْ عِنْدَهُ، وَلَمْ يُبَيِّنْ إِلَّا الْأَمْرَ بِالْهِجْرَةِ دُونَ تَحْدِيدِ الْوَقْتِ وَالطَّرِيقَةِ فِي الْبِدَائِيَّةِ، وَأَمَرَ أَنْ يَكُونَ الْخُرُوجُ لَيْلًا.

* اختيار الطريق والدليل: اختار طريقاً غير مألوفة لغيره، واستعان بخير (عبد الله بن أريقط) يعرف الطريق بدقة، رغم أنه لم يكن مسلماً، ليعلمها اعتماد الكفاءات ما دام هذا الخير على حلقه ويحفظ الأسرار.

ثانياً: الصبر والمثابرة:

ومن الخطوات التي كان يعنيها، ويعلم أصحاب التمسك بها: الصبر والمثابرة للوصول إلى الهدف.

* موقف خباب: عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ و هو متوجّد بزبدة له في ظل الكعبة، فقلنا: لا تستنصر لنا؟ لا تذعن لنا؟ فقال: "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض... ولا يصده ذلك عن دينه... والله ليتمن الله هذا الأمر... ولنكم تستغلوه".

* ثمرة الصبر: كان هذا في مكة وقت الاستضياف، فنصرهم الله بعد الصبر والمثابرة، قال تعالى: (ولئن صبرتم لهؤلئن خير للصابرين واصبر وما صبرك إلا بالله).

ختاماً:

الصبر والمثابرة صفتان أساسيتان لتحقيق النجاح؛ فالصبر هو الفدرة على التحمل، والمثابرة هي الاستمرار في بذل الجهد.

ففي الدراسة يحتاج الطالب إلى مثابرة، وفي العمل يحتاج الموظف إلى صبر لتطوير مهاراته. بما نصل إلى السعادة والتقوّق.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الصبر والمثابرة، وأن يعيننا على ذلك، وأن يحفظ بلادنا من كل مكر وسوء.

١٩. خطوات على طريق النجاح : إدارة الوقت

الحمد لله رب العالمين وسلاماً على سيدى رسول الله وآلها وصحبه ومن والاه
وابع هداه وبعد :

أيها السادة الكرام: لقد عني القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، بالوقت إعتناءً كبيراً ومن نواح شتى وبصور عديدة، فقد أقسم الله به في مطلع بعض سور بجزء منه مثل الليل، والنهر، والفجر، والضحي، والعصر، وغير ذلك. ومعروف أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه دل ذلك على أهميته وعظمته وجليل منفعته للعباد .

وكذلك جاءت السنة النبوية المطهرة لتأكد على أهمية الوقت فنجد أنّ سيدنا رسول الله ﷺ قال: ”لَنْ تَرُولَ قَدَمًا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعِ خِصَالٍ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ ؟ وَعَنْ شَبَابِهِ فِيمَا أَبْلَاهُ ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَكْثَرِهِ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيهِ .

فالآيات والأحاديث تشير إلى أهمية الوقت في حياة المسلم وأنه ينبغي للمسلم أن يحافظ على وقته لانه سوف يسأل عنه يوم القيامة وخاصة مراحل الشباب فهي مراحل الجد والعمل والبناء

والذي ينظر إلى حال السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم أجمعين يجد أنهم استغلوا وقتهم أعظم استغلال فخرجت لنا نماذج مشرفة ومشروقة من هؤلاء الأعلام

فمن هذه النماذج الرائعة سيدنا الحسن البصري رضي الله تعالى عنه الذي كان يبحث الناس على استغلال أوقاتهم فيقول يا ابن آدم إنما أنت أيام فإذا ذهب يومك ذهب بعضك ، وكان يقول أيضاً يا ابن آدم نهارك ضيفك فأحسن إليه فإنك إن أحسنت إليه إرحل بحمدك وإن أسأت إليه إرتحل بذمك وكذلك ليتتك ، وكان أحد السلف يقول أيضاً ما ندمت على شيء ندمي على يوم إنقضى نقص في أجلي ولم يزداد فيه عملي

ونقل أيضاً عن بعض السلف أنه كان لا يأكل الخبز فقيل له لما لا تأكل الخبز وتأكل الفتات فقال لأن بين أكل الخبز وشرب الفتات مقدار قراءة ٥٠ آية من القرآن الكريم

فياحسربناكم نضيع من أوقاتنا بلا فائدة في ديننا أو دنيانا فتذهب أعمارنا ولم نحصل كثيراً من أهدافنا ولم نحقق أيضاً كثيراً من نجاحاتنا كل هذا بسبب ضياع الوقت وعدم الاهتمام به

أيها السادة الكرام: استغلوا أوقاتكم في طاعة الله واستغلوا أوقاتكم في العمل والجد والاجتهاد فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا أن من النعم التي لا يعرف قدرها إلا من ضاعت منه وحرم منها ومن ذلك نعمة الوقت فقال عليه الصلاة والسلام نعمتان مغبون فيهما كثيراً من الناس الصحة والفراغ .

فهنيئاً هنيئاً لمن استغل وقته وجد واجتهد حتى يحقق أهدافه وحتى يصل إلى النجاح والنجاح في كل جوانب حياته

أيها السادة الكرام: هناك عوامل مهمة تجعلنا نحفظ أوقاتنا تتلخص في ما يلي :

أولاً: محاسبة النفس على الوقت الذي أنت مسؤول عنه يوم القيمة والذي ستندم على تضييعه في غير محله فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول حاسبو أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا اعمالكم قبل أن توزن عليكم

فقد نقل عن أحد الصالحين انه كان يقول .. على قدر أهل العزم تأتي العزائم : وتأتي على قدر الكرام المكارم

وتعظم في عين الصغار صغارها : وتصغر في عين العظيم العظام

ثانياً : ومنها ايضاً : معرفة حال السلف مع الوقت فإن معرفة أحوالهم وقراءة سيرهم لهو أكبر عون للمسلم على حسن استغلال وقته، فهم خير من أدرك قيمة الوقت وأهمية العمر، وهم أروع الأمثلة في اغتنام دقائق العمر واستغلال أنفاسه في طاعة الله

ثالثاً : ومنها: تنوع ما يستغل به الوقت فإن النفس بطبيعتها سريعة الملل، وتنفر من الشيء المكرر، وتنوع الأعمال يساعد النفس على استغلال أكبر قدر ممكن من الوقت وأنا دائماً أقول اضرب لنفسك بسهم في كل عمل صالح ومقبول حتى لا تمل

فهيا إلى اغتنام الأوقات والعودة إلى رب الأرض والسماءات، واياكم والتسويف فإن التسويف آفة تدمر الوقت وتقتل العمر ، فانظركم تضيع من أوقاتك في موقع التواصل الاجتماعي بلا فائدة وسوف تسأل عن ذلك لا محالة ... وبالله تعالى التوفيق .

٢٠. خطوات على طريق النجاح (التفاؤل والأمل)

الحمد لله رب العالمين وصالة وسلاماً على سيدى رسول الله وآلـه وصحبه ومن والاه
وابعـه هداه، وبعد:

أيها السادة الكرام: لقد جاء الإسلام بدين الرحمة والتفاؤل، ونهى عن اليأس والقنوط، وربط قلوب المؤمنين دائماً بالرجاء في الله وحسن الظن به.

قال تعالى: "إِنَّهُ لَا يَئِسُ مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ" [يوسف: ٨٧].

فالآيات القرآنية العظيمة والأحاديث النبوية الشريفة كلها تحتـ المسلمين على التفاؤل، وتزرع في قلبه الأمل مهما اشتدت عليه الظروف.

فقد قال رسول الله ﷺ: "تفاءلوا بالخير تجدوه".

أهمية التفاؤل والأمل: إن التفاؤل والأمل من أعظم أسباب النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، فالمتفائل يرى في كل محنـة منحة، وفي كل ابتلاء باباً للرجاء والفرج.

وإذا تأملنا في سيرة النبي ﷺ وجدناه أروع مثال للتفاؤل، فقد واجه الصعاب بعزيمة راسخة وأمل كبير في نصر الله، حتى قال لأبي بكر في الغار: "لَا تَحْرَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا" [التوبة: ٤٠].

أيها السادة الكرام، إن الأمل هو وقود الحياة، به تتحرك النفوس وتنهض الأمم، وبدونه يعيش الإنسان في ظلام اليأس والإحباط.

نماذج من سلفنا الصالح:

لقد كان السلف رضوان الله عليهم أهل أمل وثقة بالله، يستمدون قوتهم من يقينهم بوعده الله، ومن حسن ظنهم بربهم.

* فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كان يقول: "الهلاك في اثنتين: القنوط والعجب". فهو يبين أن فقدان الأمل طريق للهلاك.

* وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في أشد محنته يُجلد بالسياط، ومع ذلك كان يقول لتلاميذه: "بیننا وبين القوم الجنائز". أي أن الأيام ستكتشف الحق بإذن الله، وهذا منتهى الثقة والأمل في نصر الله.

* وقال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "لا يقدر أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقني، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة". فهو يبحث على الجمع بين التفاؤل والسعى والعمل.

* أما الإمام الشافعي رحمه الله فقد كان يقول:

"ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فرجت وكنت أظنها لا تُفرج"

فهذا الشعر يبين يقينه بأن الشدة لا تدوم، وأن مع العسر يسراً.

* وكان بعض السلف إذا اشتدت عليه الكروب قال: "لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً" ، فيستبشر بالفرج القريب.

كيف نغرس التفاؤل والأمل؟

* حسن الظن بالله: وهو من أعظم العبادات القلبية.

* قراءة قصص الأنبياء والصالحين: وفيها دروس في الصبر والأمل.

* مجاهدة النفس على البعد عن التشاؤم.

* التوكل على الله مع بذل الأسباب.

* مراقبة أهل التفاؤل والإيجابية.

أيها السادة الكرام: التفاؤل ليس مجرد شعور، بل هو عبادة وسلوك يرفع الإنسان درجات
ويجعله ثابتاً أمام الشدائد.

فليكن شعارنا دائماً: لا يأس مع الحياة، ولا حياة مع اليأس.

فهنيئاً لمن ملأ قلبه بالأمل والتفاؤل، فصار يسعى في حياته بثقة في ربه، ويواجه مصاعبها بوجه مبتسם وروح مطمئنة، وبالله تعالى التوفيق، وللحديث بقية إن شاء الله...

٢١. خطوات على طريق النجاح (القدوة الحسنة)

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين. وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين شهادةً تذكرنا عند السؤال، حجتنا وتيسر على الصراط مرونا، وتروينا يوم العطش الأكبر من حوض نبينا ﷺ. ونشهد أن سيدنا ونبينا وعظيمينا وقائدنا وقدوتنا وأستاذنا وقرة أعيننا ومخرجنا من الظلمات إلى النور سيدنا محمد ﷺ ، شرح الله صدره ورفع في العالمين ذكره، وصلى عليه ثم أمرنا نحن المؤمنين بالصلاوة والسلام عليه فقال جل وعلا: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوْا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، والهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى الله حق قدره ومقداره العظيم. مولاي صل وسلم دائمًاً أبداً على حبيبك خير الخلق كلهم.

وبعد : فإن من أفضل ما ينبغي أن يتعرض له المسلم هو كل ما يقربه من النجاح والفلاح في حياته، وقد يتسائل كثير من الأحباب الكرام كيف أحقق النجاح والفلاح في حياتي ، كيف أحقق النجاح والفلاح في حياتي ، كيف أصل إلى ما وصل إليه فلان وفلان ، وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن ننظر لحياة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو القدوة والأسوة في كل حياتنا ، ولما تبعت حياته صلى الله عليه وسلم وجدت عوامل للنجاح أهتم بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها التخطيط الجيد وتحديد الهدف ومنها الصبر والمثابرة حتى يصل الشخص إلى أهدافه وقد تكلمنا عنهم في مقال سابق ، ومن هذه الخطوات التي اعتنى بها سيدنا رسول الله ﷺ وبثها في صحابته الكرام أن يكون لكل واحد منا قدوة يسير خلفه ويقتفي خطواته حتى يصل بها إلى أهدافه ويحقق النجاح والفلاح وقد فهم الصحابة الكرام هذا الدرس وطبقوا واتخذوا سيدنا رسول الله ﷺ قدوتهم كما علمهم ربنا في كتابه الكريم حيث قال جل وعلا في سورة الأحزاب (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أَسْوَةً حَسَنَةً لَمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) معنى

الأسوة الحسنة في الآية: تشير إلى أن سيدنا رسول الله ﷺ هو المثال الأعلى في الأخلاق والسلوك، ويجب على المسلمين أن يقتدوا به ، وأذا قلنا صفحات القرآن الكريم نجد هذه الكلمة المهمة (القدوة والأسوة الحسنة) في آيات عديدة وفي كل مرة لها معنى ينبغي أن نتعلم منها ، فالأسوة الحسنة في القرآن جاءت في الموضع التالية :

* إبراهيم عليه السلام في التوحيد والتبرؤ من الشرك، كما ورد ذلك في سورة الممتحنة في قوله تعالى (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ)

* الأنبياء والمرسلين في الصبر والثبات على الحق ، كما ورد ذلك في سورة الممتحنة ايضاً في قوله تعالى (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ)

* أهل الإيمان في مواقف الشدة والابلاء ، وما اكثرا ذكرهم في القرآن الكريم .

ومن خلال ما سبق نفهم أهمية الأسوة والقدوة في القرآن الكريم : أهمية الأسوة في القرآن:
أولاً: توجيه للMuslimين: فالآيات تأمر المسلمين بالاقتداء بسيدنا رسول الله ﷺ في جميع أقواله وأفعاله.

ثانياً : بناء الشخصية: فالاقتداء بالقدوة الحسنة يساعد على بناء شخصية المسلم وتنميتها.

ثالثاً : تحقيق الكمال الأخلاقي: فمن خلال التأسي بسيدنا رسول الله ﷺ ، يسعى المسلم إلى تحقيق الكمال الأخلاقي والتحلي بالفضائل.

رابعاً : الاستقامة في السلوك: فالأسوة الحسنة تساعده على الاستقامة في السلوك والابتعاد عن الرذائل.

• وإذا نظرنا في حياة الصحابة الكرام ومواقفهم مع رسولنا الكريم ﷺ نجد عجباً في القدوة والتأسي به ﷺ .

ففي عمرة الحديبية وحكايتها المشهوره : لما صدَّ المشركون سيدنا رسول الله ﷺ . وأصحابه عن البيت الحرام، حين أرادوا العمرة عام الحديبية، وبعد إبرام الصلح مع قريش، كان هذا الأمر عظيماً على الصحابة . رضوان الله عليهم -، فلما أمرهم النبي . صلى الله عليه وسلم . بنحر ما معهم من الهَدْي ليحلُّوا من إحرامهم، ترددوا مع شدة حرصهم على طاعته . صلى الله عليه وسلم . وهنا يتجلَّ الأثر العظيم للقدوة العملية، إذ أشارت أم المؤمنين أم سَلَمَةَ - رضي الله عنها . على سيدنا رسول الله ﷺ - أن يقوم هو أولاً فينحر ويحلق شعره . عملياً ، لأن صاحبته سيقتدون به عند ذلك لا محالة . فخرج سيدنا رسول

الله ﷺ فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، تحرّبْدُنَهُ، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً.

أيها السادة الكرام لقد كان سيدنا رسول الله ﷺ صورة حية لأخلاق وتعاليم الإسلام السامية، رأى الناس فيه الإسلام رأي العين، فهو أفضل معلم وأعظم قدوة في تاريخ البشرية كلها، والذي أمرنا ربنا سبحانه واتباعه والاقتداء به ، فمنه ﷺ ينبغي ان نتعلم هذا الخلق العظيم إتخاذ القدوة وذلك في كل أمور حياتنا سواء في العمل او التعليم او العبادات والقربات حتى يصل كل واحد منا إلى ما يتمنى من أهداف في حياته ،

فالقدوة الحسنة هي نور يضيء الطريق ومرشد أمين يدعو إلى الخير ويهدي إلى الصراط المستقيم. إنها ليست مجرد تقليد أعمى، بل هي اقتداء بالصفات الحميدة والأفعال الصالحة التي يتحلى بها الأفراد المتميزون، سواء كانوا من الصالحين أو من أهل العلم أو من أصحاب الأخلاق العالية. القدوة الحسنة تلهم الأجيال وتدفعهم نحو التقدم والرقي، وتساهم في بناء مجتمع سليم ومتancock. وللحديث بقية ان شاء الله
.....

اسأل الله تبارك وتعالى باسمة الأعظم الذي إذا دعي به أجاب وإذا سئل به أعطى أن يسترنا بسترة الجميل وأن يرزقنا حسن الاقتداء بالصالحين وأن يوفقنا وإياكم لكل خير وأن يديم على بلدنا مصر نعمة الأمن والأمان والاستقرار إنه ولـي ذلك ومولاـه. وبالله تعالى التوفيق والسداد.

الباب الرابع

قضايا الفِكْرِ وَالْمُجَتَمِعِ

٢٢. "دُولَةُ التَّلَاقِ": إِحْيَاءُ لِمَكَانَةِ أَهْلِ الْقُرْآنِ

الحمد لله الذي أنزل الكتاب نوراً وهدى، وجعله زبيغاً لقلوب أهل التقوى، والصلوة والسلام على سيدنا محمد، الذي كان خلقة القرآن، وعلى آله وأصحابه، أهل الإثبات والإحسان.
أيها السادة الكرام: إن الله تعالى قد شرف هذه الأمة بأعظم كتاب، وجعل خيريتها منوطة به. فلينس هناك مكانة أرفع، ولا درجة أعلى، من جعل القرآن صاحبه في الدنيا ليكون شفيعه في الآخرة.

يقول سيدنا رسول الله ﷺ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعْلَمَ الْقُرْآنَ وَعَلَمَهُ" (رواوه البخاري). ويقول ﷺ: "إِنَّ اللَّهَ أَهْلِيَّ مِنَ النَّاسِ"، قالوا: يا رسول الله، مَنْ هُمْ؟ قال: "هُمْ أَهْلُ الْقُرْآنِ، أَهْلُ اللَّهِ وَخَاصَّتُهُ" (رواوه ابن ماجه).

أيّها السَّادَةُ الْكِرَامُ: هَكَذَا يَرْفَعُ الْقُرْآنُ أَهْلَهُ: لَقَدْ كَانَتْ رِعَايَةُ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَتَقْدِيمُهُمْ دَأْبُ الصَّالِحِينَ فِي كُلِّ رَمَانٍ، لِأَنَّهُمْ عَلَمُوا أَنَّ فِي إِكْرَامِهِمْ إِكْرَاماً لِكِتَابِ اللَّهِ.

* في عَهْدِ النُّبُوَّةِ: كَانَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُقَدِّمُ أَهْلَ الْقُرْآنِ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ فِي الْإِمَامَةِ فِي الصَّلَاةِ، وَحَتَّى فِي الْقِيَادَةِ. فَقَدْ أَمَرَ ﷺ شَابًا عَلَى بَعْثٍ (سَرِيَّة) لِأَنَّهُ يَحْفَظُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًا. وَكَانَ إِذَا أَرَادَ دَفْنَ الشُّهَدَاءِ فِي أُحُدٍ، يَسْأَلُ: "أَيُّهُمْ أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ؟" فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إِلَى أَحَدِهِمْ، قَدَّمَهُ فِي الْلَّحْدِ.

* في عَهْدِ الْخُلُقَاءِ: هَذَا سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كَانَ يَجْعَلُ الْقُرَاءَ أَهْلَ مَجْلِسِهِ وَمَشْوَرَتِهِ، كُهُولًا كَانُوا أَوْ شَبَابًا. وَلَمَّا سَأَلَ وَالِيَهُ عَلَى مَكَّةَ: "مَنِ اسْتَخْلَفَتْ عَلَى أَهْلِ الْوَادِي؟" قَالَ: "ابْنُ أَبْرَى". قَالَ: "وَمَنِ ابْنُ أَبْرَى؟" قَالَ: "مَوْلَى مِنْ مَوَالِيْنَا". فَكَانَ سَيِّدُنَا عُمَرَ تَعَجَّبًا، فَقَالَ الْوَالِي: "إِنَّهُ قَارِئُ لِكِتَابِ اللَّهِ، عَالِمٌ بِالْقَرَائِبِ". فَقَالَ سَيِّدُنَا عُمَرُ: "أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهِذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَنْصُعُ بِهِ آخَرِينَ" (رَوَاهُ مُسْلِمُ).

* في عَصْرِنَا الْحَدِيثِ: لَمْ يَنْقَطِعْ هَذَا الْإِرْثُ. فَقَدْ كَانَتْ مِصْرُ وَلَا تَزَالُ، هِيَ "دُولَةُ التَّلَاقِ" الْحَقِيقِيَّةُ. فَقَدَّمَتْ لِلْعَالَمِ أَصْوَاتًا خَاسِعَةً صَارَتْ جُرْءًا مِنْ وِجْدَانِ الْأُمَّةِ، كَأَصْوَاتِ الْمَشَايخِ الْكِبَارِ (كَالْحُصَرِيِّ وَعَبْدِ الْبَاسِطِ وَالْمِنْشَawiِّ وَغَيْرِهِمْ) الَّذِينَ كَانُوا وَلَا يَزَالُونَ مَنَازِلِ لِلْتَّلَاقِ الصَّحِيقَةِ.

أيّها السَّادَةُ الْكِرَامُ: بَرَكَةُ الْإِسْتِمَاعِ وَالْتَّدْبِيرِ: لَمْ يَقْتَصِرِ الأَجْرُ عَلَى الْقَارِئِ وَالْحَافِظِ فَحَسْبُ، بَلْ إِنَّ "الْإِسْتِمَاعَ" وَ"الْتَّدْبِيرَ" هُوَ عِبَادَةٌ فِي ذَاتِهِ، وَبَابٌ عَظِيمٌ لِتُرْزُولِ الرَّحْمَاتِ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

وَلَقَدْ كَانَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، يُحِبُّ أَنْ يَسْمَعُهُ مِنْ غَيْرِهِ. قَالَ لِسَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أَفْرَا عَلَيَّ"، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَفْرَا عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزِلَ؟ قَالَ: "إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي" (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ).

وَمِنْ هَذَا الْمُنْطَلَقِ الرَّفِيعِ، وَاسْتِمْرَارًا لِمَسِيرَةِ الرِّعَايَةِ، تَأْتِي الْمُبَادَرَاتُ الطَّبِيبَةُ. وَإِنَّا لِنُشِيدُ الْيَوْمَ بِبَرَنَامِجٍ مُبَارَكٍ يَحْمِلُ اسْمًا عَظِيمًا: "دُولَةُ التَّلَاقِ".

إِنَّ هَذَا الْبَرَنَامَجَ لَيْسَ مُجَرَّدَ مُسَابِقَةً، بَلْ هُوَ إِحْيَاءٌ لِلْإِرْثِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَمَيَّزَ بِهِ مِصْرُ. إِنَّ هَذِهِ الْمُسَابِقَةَ تُقَدِّمُ خِدْمَةً جِيلِيَّةً:

* تَحْفِيْرُ النَّشْءِ: فَهِيَ تَفْتَحُ بَابَ التَّنَافِسِ الْمَحْمُودِ بَيْنَ شَبَابِنَا، وَتُوَجِّهُ طَاقَاتِهِمْ نَحْوَ أَشْرَفِ عَائِيَةِ.

* إِكْرَامُ أَهْلِ الْقُرْآنِ: حِينَ نَرَى هَذَا الْاحْتِفَاءُ بِالْحَفْظَةِ وَالْمُجَوِّدِينَ، فَإِنَّا نُطَبِّقُ وَصِيَّةَ نَبِيِّنَا
سَلَّمَ وَأَكْرَمَ حَامِلِ الْقُرْآنِ.

* إِحْيَاءُ فَنِّ الْإِسْتِمَاعِ: تُعِيدُ هَذِهِ الْمُسَابِقَاتُ لِلنَّاسِ ذُوقَ الْإِسْتِمَاعِ الْخَاشِعِ، وَالتَّأثِيرُ بِكَلَامِ
اللَّهِ، فِي زَمْنِ الصَّحِيجِ وَالصَّحِيبِ.

إِنَّ كُلَّ جُهْدٍ يُبَدَّلُ فِي خِدْمَةِ الْقُرْآنِ هُوَ جُهْدُ مُبَارَكٍ. فَلْنَخْتَفِ بِهَذِهِ الْمَوَاهِبِ، وَلْنَدْعُمْ
هَذِهِ الْبَرَامِحَ، فَإِنَّهَا تُعْمِرُ الْقُلُوبَ بِالنُّورِ، وَتَحْفَظُ الْأُمَّةَ بِرَبِّكَةِ كِتَابِ رَبِّهَا. وَبِاللَّهِ تَعَالَى
الْتَّوْفِيقُ.

٢٣. جَلَالُ الْكَلِمَةِ وَآدَابُ الْقَارِئِ: وَرَتْلِ الْقُرْآنِ تَرْتِيلًا

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي شَرَفَنَا بِأَعْظَمِ كِتَابٍ، وَجَعَلَ تِلَاوَتَهُ نُورًا لِلصُّدُورِ وَهَدِيًّا لِلأَلْبَابِ. وَالصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي كَانَ قُرْآنًا يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ
تَأَوْهُ حَقًّا تِلَاوَتِهِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: إِنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ كَسَائِرِ الْكُتُبِ، إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَهُوَ الصَّفَةُ الَّتِي
خَاطَبَ بِهَا رَبُّ الْعِزَّةِ عِبَادَهُ. وَلَدُلِّكَ، فَإِنَّ التَّعَامِلَ مَعَهُ لَا يَكُونُ كَالْتَعَامِلِ مَعَ أَيِّ كَلَامٍ آخَرَ.
لَقَدْ بَيَّنَ اللَّهُ جَلَالَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتُهُ خَاسِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ
خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (الْحَسْرَ: ٢١). فَإِذَا كَانَ هَذَا أَثْرُهُ عَلَى الْحَجَرِ الْأَصْمَمِ، فَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ
حَالُ الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ تِلَاوَتِهِ؟

مِنْ هُنَاءِ، وَضَعَ لَنَا أَهْلُ الْقَهْمِ وَالْبَصِيرَةِ آدَابًا لِتِلَاوَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، تَقْسِيمٌ إِلَى ظَاهِرٍ
وَبَاطِنٍ.

أَوَّلًا: الْآدَابُ الظَّاهِرَةُ (الْآدَبُ مَعَ الْحُرُوفِ)

وَهِيَ السَّيَاجُ الْأَوَّلُ لِتَعْظِيمِ الْكَلَامِ. وَتَشْمَلُ مَا يَلِي:

* الطَّهَارَةُ: أَنْ يَكُونَ الْقَارِئُ عَلَى أَكْمَلِ حَالٍ مِنَ الطَّهَارَةِ، وَلَا يَمْسُّ الْمُصْحَفَ إِلَّا مُتَوَضِّئًا.

* الْإِسْتِعَاذَةُ وَالبَسْمَلَةُ: طَلَبًا لِلْحِمَايَةِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِعَاذَةً بِالرَّحْمَنِ.

* الْإِسْتِقْبَالُ وَالْجُلوُسُ بِأَدَبٍ: فَالْجُلوُسُ بِوَقَارٍ وَسَكِينَةٍ أَدْعَى لِلتَّرْكِيزِ وَالْخُشُوعِ.

ثَانِيًّا: الْآدَابُ الْبَاطِنَةُ (الْآدَبُ مَعَ الْمَعْنَى)

وَهَذَا هُوَ لُبُ الْمَقْصُودِ، وَهُوَ مَا يُمَيِّزُ قَارِئًا عَنْ قَارِئٍ:

* حُصُورُ الْقَلْبِ وَالْتَّدْبُرُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَنْزَلَ الْقُرْآنَ لِيُتَدَبَّرَ، فَقَالَ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾ (مُحَمَّد: ٢٤). وَكَانَ سَيِّدُنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: "لَا تَهُدُوا الْقُرْآنَ هَذَا الشِّغْرِ (أَيْ لَا تُشْرِعُوا فِيهِ)، وَلَا تَنْثُرُوهُ نَثْرَ الدَّقْلِ (الثَّمَرِ الرَّدِيءِ)، وَلَكِنْ قِفْوَا عِنْدَ عَجَائِبِهِ، وَحَرَّكُوا بِهِ الْقُلُوبَ".

* أَنْ يَتَلَقَّى الْخَطَابَ: قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ (كَالإِمَامِ الْغَزَالِيِّ): "يَتَبَغِي لِقَارِئِ الْقُرْآنِ أَنْ يَسْتَخْرِصَ أَنَّ اللَّهَ يُخَاطِبُهُ هُوَ". فَيَقُولُ الْوَعْدُ وَكَانَهُ مَوْعِدٌ بِهِ، وَيَقُولُ الْوَعِيدُ وَكَانَهُ مُهَدَّدٌ بِهِ، فَيَرِدَادُ رَجَاءً وَخَوْفًا.

* التَّاثِرُ وَالْبُكَاءُ: فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا فَهِمَ تَأَثَّرَ. وَقَدْ قَالَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِرُحْنِ، فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا، فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَقَبَّاكُوا" (رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهَ). وَكَانَ سَيِّدُنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُصَلِّي بِالنَّاسِ، فَيَقُولُ سُورَةُ يُوسُفَ، فَيُسَمِّعُ نَشِيجُهُ (صَوْتُ بُكَائِهِ) مِنْ آخِرِ الصُّفُوفِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: مِيزَانُ النَّعْمِ وَالْأَحْكَامِ
وَهُنَا نَصِلُ إِلَى قَضِيَّةِ دَقِيقَةٍ، وَهِيَ سَبِيلُ الْقَارِئِ بَيْنَ جَمَالِ الصَّوْتِ وَجَلَالِ الْمَعْنَى.
لَقَدْ أَمَرَنَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِتَحْسِينِ الصَّوْتِ فَقَالَ: "رَيْنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ" (رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ). وَأَمَرَنَا اللَّهُ بِالثَّرِيلِ فَقَالَ: ﴿وَرَتَلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (الْمُزَمَّل: ٤).
وَلَكِنْ، يَجِبُ أَنْ نَعْلَمَ أَنَّ "الثَّرِيلَ" وَ"الثَّرِيبَ" هُمَا وَسِيلَتَانٍ لِخِدْمَةِ الْمَعْنَى وَإِبْرَازِ الْخُشُوعِ،
وَلَيْسَا غَايَةً فِي ذَاتِهِمَا.

إِنَّ الْكَارِثَةَ تَقَعُ حِينَ يَتَحَوَّلُ الْقَارِئُ مِنْ "مُبَلِّغٍ" عَنِ اللَّهِ إِلَى "مُطْرِبٍ" لِلنَّاسِ.
حِينَ يَهْتَمُ الْقَارِئُ بِ"النَّعْمِ" وَيُصْحِي بِ"الْأَحْكَامِ"، فَهُوَ يَرْتَكِبُ إِثْمًا عَظِيمًا.
فَأَحْكَامُ التَّجْوِيدِ لَمْ تُوَضِّعْ عَبَثًا؛ فَالْمَدُّ وَالْقَصْرُ، وَالْإِذْعَامُ وَالْإِظْهَارُ، كُلُّهَا لِصَبْطِ الْمَعْنَى كَمَا
أَنْزَلَ.

فَأَنْ يَتَلَاقَعَ الْقَارِئُ بِالْأَحْكَامِ لِيُوَافِقَ "مَقَامًا مُوسِيقِيًّا" فَيَمْدُدُ مَا لَا يُمَدُّ، أَوْ يَقْصُرُ مَا لَا
يُقْصُرُ، فَيُفْسِدُ الْمَعْنَى أَحْيَانًا، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ التَّعْظِيمِ فِي شَيْءٍ، بَلْ هُوَ مِنَ اللَّعِبِ بِكَلَامِ اللَّهِ.
لَقَدْ كَانَ السَّلْفُ يَكْرُهُونَ "الثَّطْرِيبَ" الَّذِي يُخْرِجُ الْقُرْآنَ عَنْ سَمْتِهِ وَوَقَارِهِ.

إِنَّ الْقُرْآنَ أَنْزَلَ لِيُخْشَعَ بِهِ، لَا لِيُطَرَّبَ بِهِ.

خَاتَمَةُ وَوَصَايَا لِقَارِئِ الْقُرْآنِ:

* أَخْلِصِ النَّيَّةَ: اجْعَلْ قِرَاءَتَكَ لِلَّهِ، لَا لِيُقَالَ "صَوْتُهُ جَمِيلٌ" أَوْ "نَفْسُهُ طَوِيلٌ".

* قَدْمِ الْأَحْكَامَ: الْأَحْكَامُ أَوَّلًا، ثُمَّ يَأْتِي جَمَالُ الصَّوْتِ تَابِعًا لَهَا. فَالْتَّجْوِيدُ هُوَ الَّذِي يَحْكُمُ النَّغْمَ، وَلَيْسَ الْعَكْسُ.

* اقْرُأْ بِقُلْبِكَ: لَا تَقْرُأْ بِإِسَانِكَ فَقْطًا. اجْعَلْ قُلْبَكَ يَتَدَبَّرُ، وَجَوَارِحَكَ تَتَائِرُ.

* تَذَكَّرُ: إِنَّ رَبَّ قَارِئِ الْقُرْآنِ وَالْقُرْآنُ يَلْعَنُهُ - كَمَا جَاءَ فِي الْأَثْرِ - لِأَنَّهُ يَقْرُأُ آيَاتِ النَّهْيِ عَنِ الظُّلْمِ وَهُوَ ظَالِمٌ، أَوْ يَقْرُأُ آيَاتِ الرِّبَا وَهُوَ آكِلٌ لَهُ.

فَلَنْتَقِ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، وَلْنُعْطِهِ حَقَّهُ مِنَ الْإِجْلَالِ وَالْتَّعْظِيمِ وَالتَّدْبِيرِ، لِيَكُونَ حُجَّةً لَنَا لَا حُجَّةً عَلَيْنَا. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

٤. الْفِكْرُ الْإِلْحَادِيُّ وَكَيْفِيَّةُ مُواجهَتِهِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الَّذِي أَوْدَعَ فِي الْكَوْنِ آيَاتٍ لِلْمُتَفَكِّرِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي جَاءَ بِالنُّورِ الْمُبِينِ، وَعَلَى أَهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ يَوْمَ الدِّينِ.

الْفِكْرُ الْإِلْحَادِيُّ دَاءٌ يُهَدِّدُ الْيَقِينَ وَيُرَعِّزُ الْفِطْرَةَ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: لَيْسَ الْإِلْحَادُ فِكْرَةً حَدِيثَةً، بَلْ هُوَ دَاءٌ قَدِيمٌ يَتَجَدَّدُ بِتَغْيِيرِ الْأَزْمَانِ. إِنَّهُ فِكْرٌ يَضْرِبُ فِي الصَّمِيمِ يَقِينَ الْفِطْرَةِ بِوُجُودِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَيَعْمَلُ عَلَى نَزْعِ كُلِّ مَعْنَى سَامٍ لِلْوُجُودِ. لَقَدْ أَكَدَ سَيِّدُنَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْفِطْرَةِ الْأَصِيلَةِ فِي كُلِّ إِنْسَانٍ، فَقَالَ: "كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ". فَالْأَصْلُ فِي الْإِنْسَانِ هُوَ التَّوْحِيدُ، وَالْإِلْحَادُ إِنَّمَا هُوَ انْحرافٌ يَطْرُأُ عَلَى الْقَلْبِ.

بَدِيهِيَّةُ الْفِطْرَةِ فِي قَوْلِ الْأَعْرَابِيِّ : وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْفِطْرَةُ حِكْرًا عَلَى الْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ، بَلْ هِيَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي قُلُوبِ الْبَسْطَاءِ. يُحَكِّي أَنَّ أَعْرَابِيًّا سُئِلَ: "بِمَ عَرَفْتَ رَبِّكَ؟" فَقَالَ قَوْلَتَهُ الشَّهِيرَةُ الَّتِي صَارَتْ مَثَلًا فِي قُوَّةِ الْحُجَّةِ الْفِطْرِيَّةِ: "الْبَعْرَةُ تَدْلُّ عَلَى الْبَعِيرِ، وَالْأَثْرُ يَدْلُّ عَلَى الْمَسِيرِ، فَسَمَاءُ ذَاتُ أَبْرَاجٍ، وَأَرْضُ ذَاتُ فِجاجٍ، وَبِحَارُ ذَاتُ أَمْوَاجٍ، أَلَا يَدْلُلُ ذَلِكَ عَلَى الْلَّطِيفِ الْخَيْرِ؟!". فَهَذَا هُوَ صَوْتُ الْفِطْرَةِ الَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى مُقَدَّمَاتٍ مُعَقَّدةٍ.

وَقَدْ أَوْضَحَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَنَّ إِنْكَارَ الْخَالِقِ هُوَ خُرُوجٌ عَنْ نِظامِ الْعَقْلِ وَالْبَدَاهَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿أَمْ حَلَقُوا مِنْ عَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ * أَمْ حَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾
(الظُّور: ٣٥-٣٦).

إِنَّ هَذِهِ الْآيَةُ تُلْخِصُ مَنْهَجَ الْمُوَاجِهَةِ: لَا بُدَّ لِلْوُجُودِ مِنْ مُوجِدٍ، وَلَا بُدَّ لِلْخَلْقِ مِنْ خَالِقٍ، فَلَا يُمْكِنُ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَخْلُقَ نَفْسَهُ، وَلَا أَنْ يَخْلُقَ مَا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

بَيَانُ الْحَقِّ بِبَدَاهَةِ الْعَقْلِ: دَرْسٌ مِنْ سَيِّدِنَا أَبِي حَنِيفَةَ

كَانَ سَلْفُنَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ بَرَاهِينَ الْحَقِّ كَامِنَةٌ فِي كُلِّ نَاظِرٍ، وَمِنْ أَعْظَمِ الْمَوَاقِفِ الَّتِي تَدْلُّ عَلَى عُمُقِ الْفِكْرِ وَقُوَّةِ الْحُجَّةِ: مُنَاظِرَةُ سَيِّدِنَا الْإِلَمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ النُّعْمَانِ رَحِمَهُ اللَّهُ مَعَ قَوْمٍ مِنَ الْمُلْحِدِينَ.

لَقَدْ تَعَمَّدَ سَيِّدِنَا الْإِلَمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ التَّالْحَرَ عَنِ الْمَوْعِدِ الْمُحَدَّدِ، فَلَمَّا حَضَرَ سَأْلُوهُ عَنْ سَبَبِ تَأْخِيرِهِ، فَقَالَ: "كُنْتُ مُشْتَغِلًا بِأَمْرٍ عَجِيبٍ: إِنَّ سَفِينَةً مَسْحُونَةً بِأَنْواعِ الْبَصَائِعِ الْعَظِيمَةِ، جَاءَتْ فِي نَهْرٍ دِجلَةَ، وَسَارَتْ بِنَفْسِهَا، لَا مَلَاحَ يَسُوقُهَا، وَلَا رُبَّانٍ يَقُودُهَا، تَحْتَرِقُ الْأَمْوَالُ وَتَسِيرُ مُسْتَوِيَّةً بِمُفْرَدِهَا، حَتَّىٰ رَسَتْ عَلَى الشَّاطِئِ ثُمَّ فَرَغَتْ بِنَفْسِهَا، ثُمَّ عَادَتْ لِتَمْتَلَّئِي دُونَ صَانِعٍ أَوْ مُدَبِّرٍ!"

فَصَاحَ الْمُلْحِدُونَ مُتَعَجِّبِينَ: "هَذَا مُحَالٌ! كَيْفَ لِسَفِينَةٍ أَنْ تَسِيرَ وَتُرْسِيَ بِهَذِهِ الدَّفَةِ دُونَ صَانِعٍ وَمُدَبِّرٍ؟ إِنَّ هَذَا لَا يَقْبِلُهُ عَقْلٌ!"

فَعِنْدَهَا أَجَابُهُمْ سَيِّدِنَا الْإِلَمَامُ أَبُو حَنِيفَةَ: "وَيْحَكُمْ! إِذَا كَانَ مُجَرَّدُ سَفِينَةٍ صَغِيرَةٍ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَسِيرَ بِدُونِ مُسَيِّرٍ، فَكَيْفَ بِهَذَا الْعَالَمَ كُلِّهِ، بِسَمَاوَاتِهِ وَأَرْضِهِ، وَشَمْسِهِ وَقَمَرِهِ، هَلْ يَجُوزُ أَنْ يَقُومَ بِدُونِ خَالِقٍ وَحَافِظٍ وَمُدَبِّرٍ لَهُ؟"

فَكَانَتْ حُجَّتُهُ هِيَ بَدَاهَةُ الْعَقْلِ وَشَهَادَةُ الْكَوْنِ، فَسَكَّتُوا وَأَقْرُوا.

دَلَائِلُ الْكَوْنِ وَآيَاتُ الْحَقِّ: لَقَدْ مَلَأَ اللَّهُ الْكَوْنَ بِآيَاتٍ تُؤْكِدُ وُجُودَهُ وَوَحْدَانِيَّتَهُ، فَالنَّظَرُ الْمُتَجَرِّدُ فِي الطَّبِيعَةِ هُوَ أَكْبَرُ رَدٍّ عَلَى الْإِلْحَادِ. يَقُولُ الْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لَّأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠).

وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ؟ إِنَّ أَقْرَبَ الْآيَاتِ إِلَيْنَا هِيَ أَنْفُسُنَا الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِنَا، تَأْمَلُ -أَخْيَى الْكَرِيمُ- فِي هَذَا الْجَسَدِ الْعَجِيبِ. الْقَلْبُ يَنْبِضُ مِائَةً أَلْفِ مَرَّةٍ فِي الْيَوْمِ دُونَ كُلِّ أَوْ مَلَلٍ، فَمَنْ أَوْدَعَ فِيهِ هَذِهِ الْقُوَّةَ؟ وَالْعَيْنُ تَرَى بِأَدْقَقِ التَّفَاصِيلِ وَأَجْمَلِ الْأَلْوَانِ، فَمَنْ صَمَّمَ هَذِهِ الْعَدَسَةَ الرَّبَّانِيَّةَ؟ وَالدَّمَاغُ يَحْوِي مِنَ الْخَلَايا وَالْوَصَلَاتِ مَا يَفْوُقُ أَعْقَدَ الْحَوَاسِبِ فِي الْعَالَمِ، فَمَنْ نَظَمَهُ وَدَبَرَهُ؟ إِنَّهَا آيَاتٌ نَاطِقَةٌ بِعَظَمَةِ الْخَالِقِ لِمَنْ كَانَ لَهُ قُلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ.

وَفِي دَعْوَةٍ صَرِيقَةٍ لِلتَّقْرِيرِ فِي أَصْغَرِ الْمَخْلُوقَاتِ، يَقُولُ جَلَّ فِي عُلَاهُ: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقْتُ﴾ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعْتُ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبْتُ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحْتُ﴾ (الْغَاشِيَةُ: ١٧ - ٢٠).

فَكُلُّ نِظامٍ دَقِيقٍ فِي هَذَا الْكَوْنِ، مِنْ دَوْرَانِ الْأَفْلَاكِ إِلَى نُزُولِ الْقَطْرِ، إِنَّمَا هُوَ شَاهِدٌ عَلَى قُدْرَةِ الْخَالِقِ الْعَظِيمِ.

كَيْفِيَّةُ الْمُواجَهَةِ الْحَدِيثَةِ وَبَرَكَةُ الصَّلَاحِ

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: إِنَّ الْمُواجَهَةَ الْحَقِيقِيَّةَ لِلْإِلْحَادِ تَبْدِأُ مِنْ دَاخِلِ الْبُيُوتِ، بِتَرْسِيخِ الْيَقِينِ وَغَرْسِ الصَّلَاحِ، كَمَا وَرَدَ فِي قِصَّةِ سَيِّدِنَا مُوسَى وَالْخَضِيرِ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عِنْدَ بَنَاءِ الْجِدَارِ، فَيَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ:

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَتْرُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشْدَهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الْكَهْفُ: ٨٢).

إِنَّ صَلَاحَ الْأَبِ حَفِظَ كَتْرَ أَبْنَائِهِ فِي الْأَرْضِ. وَكَذَلِكَ الْأَمْرُ مَعَ الْإِيمَانِ، فَصَلَاحُنَا وَاسْتِقْامَتْنَا هُمَا كَتْرُ الْيَقِينِ الَّذِي نُورَتْهُ لِأَبْنَائِنَا.

وَمِنْ أَعْظَمِ الْمُواجَهَاتِ:

* قُوَّةُ الْيَقِينِ وَالْعِلْمِ: إِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ وَتَعَمَّقَ فِي عِلْمِ الْعَقِيَّةِ الصَّحِيحَةِ، صَارَ كَالدُّرْعِ فِي وَجْهِ الْشُّبُهَاتِ. وَلَنَتَدَكُّرْ قِصَّةً ذَاكَ الرَّجُلِ الَّذِي جَاءَ إِلَى سَيِّدِنَا الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ يَسْأَلُهُ: "كَيْفَ يَعْذِبُ اللَّهُ إِبْلِيسَ بِالنَّارِ وَقَدْ حُلِقَ مِنْهَا؟" فَأَخَذَ سَيِّدِنَا الشَّافِعِيُّ بِلَبْنَةٍ مِنْ طِينٍ وَضَرَبَ بِهَا الرَّجُلَ، فَتَوَجَّعَ الرَّجُلُ، فَقَالَ لَهُ سَيِّدِنَا الشَّافِعِيُّ: "إِنَّ الطَّيْنَ حُلِقَتْ مِنْهُ وَقَدْ أَوْجَعَكَ، فَلَا تَتَعَجَّبْ مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ عَلَى تَعْذِيبِ مَخْلُوقٍ بِمَا حُلِقَ مِنْهُ".

* الْقُدُودُ الْحَسَنَةُ وَالْأَمَانَةُ: لَيْسَ الصَّلَاхُ مُجَرَّدَ عِبَادَةٍ شَخْصِيَّةٍ، بَلْ هُوَ سَبَبُ الْبَرَكَةِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ. فَالْأَبُ الصَّالِحُ هُوَ أَوَّلُ مَعْلِمٍ فِي حَيَاةِ أَبْنَائِهِ، وَأَفْعَالُهُ هِيَ الَّتِي يَتَعَلَّمُونَ مِنْهَا حُبُّ اللَّهِ.

فَاللَّهُ الَّذِي حَفِظَ كَتْرَ الْيَتِيمَيْنِ بِسَبَبِ صَلَاحِ أَبِيهِمَا، سَيِّحَفَظُ لَنَا أَبْنَاءَنَا وَأَحْفَادَنَا إِنْ غَرَسْنَا فِي قُلُوبِهِمُ الْيَقِينَ، وَاجْتَهَدْنَا فِي الْعَمَلِ الصَّالِحِ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٢٥. قِيمَةُ الْأَثَارِ بَيْنَ الدُّكْرَى وَالْأَعْتِبَارِ وَمَوْقِفُ الصَّحَابَةِ وَالسَّلْفِ الصَّالِحِ مِنَ الْأَثَارِ
الْفِرْعَوْنِيَّةِ

الْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِي عَلِمَ بِالْقَلْمِ، عَلِمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، أَفْصَحَ الْخَلْقِ لِسَانًا، وَأَعْمَقَهُمْ فَهْمًا، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنْ تَبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ : إِنَّ الْأَثَارَ الَّتِي حَلَّفْتُهَا الْأُمُّ الْغَابِرَةُ لَيَسْتُ مُجَرَّدَ أَحْجَارٍ صَمَاءَ أَوْ نُقُوشٍ بَاهِتَةٍ، بَلْ هِيَ سِجلُ التَّارِيخِ الْحَيُّ، وَدِيوانُ الْحَضَارَاتِ الَّذِي يُطْلِعُ الْأَجْيَالَ الْلَّاحِقَةَ عَلَى أَحْوَالِ مَنْ سَبَقُوهُمْ؛ عَلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ مِنْ عُلُومٍ وَفُنُونٍ، وَعَلَى مَا عَاشُوهُ مِنْ رَحَاءٍ أَوْ شِدَّةٍ، وَعَلَى مَا اعْتَنَقُوهُ مِنْ أَفْكَارٍ وَمُعْتَقَدَاتٍ.

هِيَ "ذَاكِرَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ" الَّتِي تَحْفَظُ لَهَا مَسِيرَتَهَا. وَالْحِفَاظُ عَلَيْهَا لَيْسَ تَرْفًا، بَلْ هُوَ ضَرُورَةٌ لِفَهْمِ السُّنْنِ الْكَوْنِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ. فَمِنْ خَلَالِ هَذِهِ الشَّوَاهِدِ، نَفْرَا صُعُودُ الْأُمُّ وَسُقُوطُهَا، وَنَسْتَلِهِمُ الدُّرُوزُ وَالْعِبَرُ لِبَنَاءِ مُسْتَقْبِلِنَا. لِذَٰهَ كَانَ الْوَعْيُ بِقِيمَتِهَا وَالْحِرْصُ عَلَى صِيَانَتِهَا مَطْلَبًا حَضَارِيًّا وَإِنسانِيًّا رَفِيعًا، وَهُوَ مَا أَدْرَكَنَا شَرِيعَتُنَا الْغَرَاءُ كَمَا سَيِّأْتِي بَيَانُهُ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ : وَبَعْدَ هَذِهِ الْمُقْدَمَةِ الَّتِي لَا بُدَّ مِنْهَا، فَأَقُولُ :

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ خَصَائِصِ الْإِسْلَامِ أَنَّهُ دِينُ الْفَهْمِ وَالْوَعْيِ وَالاعْتِبَارِ. لَمَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِصْرَ عَلَى يَدِ سَيِّدِنَا عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وَمَعَهُ ثُلَّةً مِنْ خِيرَةِ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، دَخَلُوا أَرْضًا غَامِرَةً بِالْعَجَابِ، وَشَاهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ آثارَ أُمِّ سَابِقَةٍ، تَرَكْتُ وَرَاءَهَا صُرُوحًا وَأَهْرَاماً وَمَعَابِدَ تَشَهُّدُ عَلَى قُوَّةِ وَبَاسِ، كَمَا تَشَهُّدُ عَلَى مَصِيرِ الْغَابِرِينَ.

وَكَانَ السُّؤَالُ الَّذِي يَطْرُحُ نَفْسُهُ عَلَى مَرْءَ الْعُصُورِ: كَيْفَ تَعَالَمَ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةُ الْكَرَامُ، وَمَنْ بَعْدُهُمْ مِنَ السَّلْفِ الصَّالِحِ، مَعَ هَذِهِ الْأَثَارِ الْفِرْعَوْنِيَّةِ الْبَاقِيَّةِ؟

شَهَادَةُ التَّارِيخِ وَ"إِجمَاعُ السُّكُوتِ" عِنْدَ السُّيُوفِيِّ

يُقْدِمُ لَنَا الْإِمامُ جَلَالُ الدِّينِ السُّيُوفِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ) فِي كِتَابِهِ الْقِيَمِ "حُسْنُ الْمُحَاضَرَةِ فِي تَارِيخِ مِصْرِ وَالْقَاهِرَةِ"، وَصَفَّا دَقِيقًا لِمِصْرَ وَعَجَابِهَا وَآثَارِهَا كَالْأَهْرَامَاتِ وَأَيِّ الْهُولِ وَالْمَعَابِدِ.

وَالْمُلَاحَظَةُ الْجَدِيرَةُ بِالتَّأْمِلِ أَنَّ الْإِمامَ السُّيُوفِيَّ، وَهُوَ يَسْتَعْرِضُ تَارِيخَ مِصْرَ مِنْ الْقِدَمِ وَحَتَّى عَصْرِهِ، وَيَذْكُرُ فَتَحَهَا وَدُخُولَ الصَّحَابَةِ إِلَيْهَا، لَمْ يُشْرِكْ مِنْ قَرِيبٍ أَوْ بَعِيدٍ إِلَى أَنَّ وَاحِدًا مِنَ الصَّحَابَةِ أَوِ التَّابِعِينَ قَدْ أَمْرَ بِهِدْمِ هَذِهِ الْأَثَارِ أَوِ التَّعَرُضِ لَهَا بِسُوءِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ : إِنَّ سُكُوتَ كُتُبِ التَّارِيخِ الْمُعْتَمَدَةِ -كِتَابِ السُّيُوفِيِّ- عَنْ ذِكْرِ أَيِّ حَادِثَةٍ هَدَمَ، هُوَ فِي ذَاتِهِ أَقْوَى دَلِيلٍ. فَلَوْ حَدَثَ أَمْرٌ بِهَذَا الْجَلَلِ، كَهَدَمِ الْأَهْرَامَاتِ أَوْ تِمْثَالِ أَيِّ الْهُولِ، لَتَنَاقَلَتْهُ كُتُبُ السِّيَرِ وَالْتَّارِيخِ بِالْتَّفْصِيلِ، وَلَأَصْبَحَ حَدَثًا مَشْهُورًا.

بَلْ عَلَى الْعُكْسِ، بَنَى سَيِّدُنَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ مَدِينَةَ الْفُسْطَاطِ، وَبَنَى مَسْجِدَهُ الْعَتِيقَ، عَلَى مَقْرُبَتِهِ مِنْ هَذِهِ الْأَثَارِ، وَتَعَايشَ الْمُسْلِمُونَ مَعَهَا قُرُونًا طَوِيلَةً. هَذَا التَّعَايُشُ وَعَدَمُ التَّعَرُضِ يُمَثِّلُ "إِجْمَاعًا سُكُوتِيًّا" أَوْ "إِجْمَاعًا عَمَلِيًّا" مِنْ جِيلِ الصَّحَابَةِ وَالثَّابِعِينَ الَّذِينَ كَانُوا بِمِصْرَ، عَلَى أَنَّ حُكْمَ هَذِهِ الْأَثَارِ يَحْتَلِفُ عَنْ حُكْمِ الْأَصْنَامِ.

وَلَمْ يَقْتَصِرِ الْأَمْرُ عَلَى الْإِمَامِ السُّعِيُوطِيِّ، بَلْ إِنَّ كِبَارَ الْمُؤَرِّخِينَ وَالْجُغُرَافِيِّينَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ فَعَلُوا الشَّيْءَ ذَاتَهُ:

* الْإِمَامُ تَقِيُّ الدِّينِ الْمَقْرِيزِيُّ (رَحْمَهُ اللَّهُ): فِي مَوْسُوعَتِهِ الْعَظِيمِ "الْمَوَاعِظُ وَالاعْتِباَرُ بِذِكْرِ الْخِطَطِ وَالْأَثَارِ" (الْمَعْرُوفَةُ بِ"خِطَطِ الْمَقْرِيزِيِّ")، يُفِرِّدُ الْمَقْرِيزِيُّ فُصُولًا كَامِلَةً لِوضُفِ عَجَائِبِ مِصْرَ، وَعَلَى رَأْسِهَا الْأَهْرَامُ وَأَبُو الْهُوْلِ وَالْبَرَاءِيِّ (الْمَعَابِدُ الْقَدِيمَةُ). وَيَنْقُلُ لَنَا بِدِقَّةٍ مَا قِيلَ عَنْهَا وَكَيْفَ بُنِيتُ، وَيَصِفُ عَظِيمَتَهَا الْهَنْدِسِيَّةَ. كَانَ تَعَامِلُهُ مَعَهَا تَعَامِلَ الْمُؤَرِّخِ الْوَاصِفِ وَالْمُعْتَبِرِ، لَا تَعَامِلَ النَّاقِدِ الْدِينِيِّ الدَّاعِيِّ لِلِّإِزَالَةِ. وَهَذَا يُؤَكِّدُ أَنَّهَا كَانَتْ عَلَى مَدَى قُرُونِ الْحُكْمِ الْإِسْلَامِيِّ جُزْءًا مِنْ مَعَالِمِ الْأَرْضِ الَّتِي يُؤْخَذُ مِنْهَا الدَّرْسُ.

* مُوفَّقُ الدِّينِ عَبْدُ اللَّطِيفِ الْبَغْدَادِيُّ (رَحِمَهُ اللَّهُ): هَذَا الطَّبِيبُ وَالرَّحَالُ الْبَغْدَادِيُّ، الَّذِي زَارَ مِصْرَ فِي أَوَّلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْهِجْرِيِّ، تَرَكَ لَنَا كِتَابًا نَفِيسًا هُوَ "الْإِفَادَةُ وَالاعْتِباَرُ فِي الْأُمُورِ الْمُشَاهَدَةِ وَالْحَوَادِثِ الْمُعايَيَةِ بِأَرْضِ مِصْرَ". وَفِيهِ يَصِفُ الْبَغْدَادِيُّ مَا شَاهَدَهُ بِعِينِهِ مِنْ عَظِيمَةِ الْأَثَارِ فِي "مَنْفَ" وَغَيْرِهَا، وَيُعَبِّرُ عَنْ انْدِهاشِهِ الْبَالِغِ مِنْ دِقَّةِ الْهَنْدِسَةِ وَبَرَاعَةِ الصَّنْعَةِ، وَيَتَحَسَّرُ عَلَى زَوَالِ أَهْلِهَا. كَانَ مَنْهَجُهُ مَنْهَجَ الْعَالَمِ الْمُدَقَّقِ وَالْمُؤْمِنِ الْمُعْتَبِرِ بِزَوَالِ الدُّولِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ : فِيْهُ التَّفَرِيقُ: بَيْنَ "الصَّنِيمَ" وَ "الْأَثَرِ"

لَقَدْ كَانَ لَدَى الرَّعِيلِ الْأَوَّلِ فَهُمْ عَمِيقُ وَوَعِيُّ دَقِيقُ، مَكَنُوهُمْ مِنْ التَّفَرِيقِ الْوَاضِحِ بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

* الصَّنِيمُ (الْوَئْنُ الْمَغْبُودُ): وَهُوَ مَا يُتَّحَدُ لِلْعِبَادَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ. وَهَذَا هُوَ مَا أَمَرَ الْإِسْلَامُ بِإِذَالَتِهِ وَتَطْهِيرِ الْأَرْضِ مِنْهُ، كَمَا فَعَلَ سَيِّدُنَا النَّبِيُّ ﷺ بِأَصْنَامِ الْكَعْبَةِ، لِأَنَّهَا تُمَثِّلُ شِرْكًا مُبَاشِرًا وَعِبَادَةً ظَاهِرَةً.

* التَّمَثَالُ (الْأَثَرُ التَّارِيْخِيُّ): وَهُوَ مَا يَقِيَ مِنْ حَضَارَاتٍ سَابِقَةٍ، انْقَطَعَتْ عِبَادَتُهُ، وَلَمْ يَعُدْ يُمَثِّلُ أَيِّ فِتْنَةٍ عَقْدِيَّةً لِلنَّاسِ، وَتَحَوَّلَ إِلَى مُجَرَّدِ شَاهِدٍ عَلَى التَّارِيخِ وَعِبْرَةٍ لِلنَّاظِرِينَ.

أَذْرَكَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ أَنَّ الْأَثَارَ الْفِرْعَوْنِيَّةَ تَنْدِرجُ تَحْتَ النَّوْعِ الثَّانِيِّ. فَهِيَ لَمْ تَكُنْ مَغْبُودَةً فِي زَمْنِهِمْ، لَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ كَانُوا بِمِصْرَ. لِذَلِكَ، لَمْ يَنْطَبِقْ عَلَيْهَا حُكْمُ "الصَّنِيمَ" الْوَاجِبِ إِرَائَتُهُ.

أيّها السادة الكرام : وقد أكد الفقهاء هذا المعنى حين فرقوا بِدِقَّةٍ بين التماضيل التي تُصنَع لِتُعبد، وَتُلْكَ الَّتِي تُصْنَع لِأغْرَاضٍ أُخْرَى كَالرِّينَةِ أَوْ تَعْلِيمِ الْأَطْفَالِ (كَلْعَبِ الْبَنَاتِ الَّتِي أَفَرَّتْهَا السُّنَّةُ). فالتحرير القاطع مُرتبٌ بِعِلَّةٍ "المضاهاة لخلق الله" أو "قصد التّعظيم والعبادة". وبمجرد انتفاء علة العبادة عن هذه الآثار القديمة، وتحولها إلى مجرد أحجار تحكي التاريخ، زالت عنّها سمة "الوثن" وتقىيّتها لها سمة "الأية" و "العبرة".

الآثار: عبرة قرآنية وشاهدٌ تاريخيٌّ

أيّها السادة الكرام : إن موقف السلف هذا لم يكن اجتهاداً مخالفًا للنصوص، بل كان تطبيقاً لروح القرآن الكريم. فالقرآن نفسه حثّنا في مواضع عديدة على النّظر والإعتبار في مصائر الأمم السابقة.

قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (الروم: ٤٢). وقال جل شأنه: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا﴾ (محمد: ١٠).

فكيف يتّم "النّظر" و "الاعتبار" إذا تم هدم الشواهد وطمس الآثار؟

لقد فهم الصحابة أن هذه الصروح العظيمة -التي تركها فرعون وقومه الذين ذكرهم القرآن- هي خير شاهد عملي على قوله تعالى: ﴿فَالِّيَوْمَ نُنْجِيَكُمْ بِبَدْنِكُمْ لِتَكُونُ لِمَنْ خَلَقَكُمْ آيَةً﴾ (يوسوس: ٩٢). فهي "آية" لمن خلفهم، ثريتهم عاقبة الجبروت والعلو في الأرض، وتذكرهم بقدرة الله البالغة.

خلاصة القول سادتي : إن ما نقله الإمام السيوطي والمقرئي والبغدادي وغيرهم من مؤرخي الإسلام، يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن مسلك الصحابة والسلف الصالح كان هو الحفاظ على هذه الآثار لليعرّبة والعزة، وليس الهدم والإزالة.

وهذا الفهم العميق هو الذي توارثه المؤسسات الإسلامية العريقة -وعلى رأسها الأزهر الشريف ودار الإفتاء المصرية- في فتاواها الرصينة التي تحرم التعدي على الآثار وتعدّها إثماً إنسانياً وتاريخياً يحب الحفاظ عليه.

خاتمة ونصيحة: كيف نتعامل مع الآثار؟

أيّها السادة الكرام : وبناءً على ما تقدّم، فإن النّصيحة الواجبة في التعامل مع هذا الإرث التاريخي تتلخص في الآتي:

* التَّعَامُلُ بِمَنْظُورِ "الْاعْتِبَارِ" فَنَحْنُ نَنْظُرُ إِلَيْهَا بِعَيْنِ الْمُتَعَلِّمِ مِنْ تَجَارِبِ السَّابِقِينَ، نَرَى فِيهَا قُوَّاتِهِمْ وَعِلْمَهُمْ، وَنَرَى فِيهَا -فِي الْوَقْتِ ذَاتِهِ- مَصِيرَهُمْ وَزَوَالُهُمْ، فَيَتَعَاظِمُ فِي قُلُوبِنَا قُدْرَةُ اللَّهِ الْبَاقِي سُبْحَانَهُ.

* الْحِفَاظُ عَلَيْهَا كَإِرْثٍ إِنْسَانيٌّ: إِنَّهَا مِلْكُ الْتَّارِيخِ الْإِنْسَانيِّ عَامَّةً، وَلِيَلَادِنَا خَاصَّةً. وَالْحِفَاظُ عَلَيْهَا مِنْ كُلِّ مَا يُشَوُّهُهَا أَوْ يُعَرِّضُهَا لِلتَّلَفِ هُوَ وَاجِبٌ شَرِيعِيٌّ وَوَطَنِيٌّ وَحَضَارِيٌّ.

* تَزَيِّنُهَا عَنِ الشَّوَائِبِ: يَجِبُ أَنْ يَبْقَى التَّعَامُلُ مَعَهَا فِي إِطَارِهَا التَّارِيْخِيِّ وَالْعِلْمِيِّ، وَأَلَّا تُسَسَّجَ حَوْلَهَا الْخَرَافَاتُ أَوِ الْمُمَارَسَاتُ الَّتِي تُخَالِفُ صَحِيحَ الْعِقِيدَةِ، كَالْتَّبَرُكُ بِهَا أَوْ غَيْرِ ذَلِكِ.

إِنَّ فَهْمَ السَّلْفِ الصَّالِحِ كَانَ فَهْمًا رَاقِيًّا وَوَاعِيًّا، حَافَظَ عَلَى الْأَثَارِ لِتَكُونَ شَاهِدًا، وَحَافَظَ عَلَى الْقُلُوبِ مِنْ أَنْ تَتَعَلَّقَ بِغَيْرِ خَالِقِهَا.

وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَى وَأَعْلَمُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

٢٦. أَرْضُنَا: أَمَانَةُ الْإِيمَانِ وَإِرْثُ الْأَجْدَادِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ مَهْدًا وَقَرَارًا، وَكَرَمَ الْإِنْسَانَ بِعِمَارَتِهَا وَاسْتِخْلَافِهِ فِيهَا، وَجَعَلَ الْإِتْقَانَ فِي الْعَمَلِ قُرْبَةً وَشَعَارًا. وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الَّذِي عَلَمَنَا أَنَّ حُبَّ الْأَوْطَانِ فِطْرَةً أَصِيلَةً، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ بَنُوا وَأَعْمَرُوا وَمَا بَدَّلُوا تَبَدِيلًا.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: إِنَّ حُبَّ الْوَطَنِ لَيْسَ مُجَرَّدَ كَلِمَاتٍ تُتَشَدُّ، أَوْ أَهَازِيجَ تُرَدَّدُ، بَلْ هُوَ شُعُورٌ عَمِيقٌ غَرَسَهُ اللَّهُ فِي فِطْرَةِ الْإِنْسَانِ. وَهُنَّاكَ أَقْوَى دَلِيلًا عَلَى شَرْفِ هَذَا الشُّعُورِ، مِنْ مَوْقِفِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَتَرَكُ مَكَّةَ مُهَاجِرًا؟

لَقَدْ وَقَفَ سَيِّدُ الْخَلْقِ ﷺ يُخَاطِبُ وَطَنَهُ الْأَوَّلِ (مَكَّةَ) بِقَلْبِهِ قَبْلَ لِسَانِهِ، وَقَالَ قَوْلَتُهُ الْخَالِدَةُ: "مَا أَطْبَيْتِكِ مِنْ بَلَدٍ، وَأَحَبَّكِ إِلَيَّ! وَلَوْلَا أَنَّ قَوْمِي أَخْرَجُونِي مِنْكِ، مَا سَكَنْتُ غَيْرِكِ" (رَوَاهُ التَّرمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ).

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: إِنَّ هَذَا الْحُبُّ الْفِطْرِيُّ لِلأَرْضِ، يُحَوِّلُهُ الْإِيمَانُ مِنْ مُجَرَّدِ عَاطِفَةٍ إِلَى "مَسْؤُلِيَّةٍ" وَ"عِمَارَةٍ". فَدِينُنَا هُوَ دِينُ الْبَنَاءِ وَالْإِتْقَانِ. فَمَا قَصَصُ الْقُرْآنِ إِلَّا تَأْكِيدُ لِهِدَى الْمَغْفِيِّ:

* فَهَذَا سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، بَعْدَ أَنْ وَضَعَ أُسُسَ الْبَيْتِ، لَمْ يَئِسْ وَطَنَهُ الْجَدِيدَ، بَلْ تَرَجَّمَ حُبَّهُ لَهُ إِلَى دُعَاءٍ بِالْأَمْنِ وَالرِّزْقِ فَقَالَ: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَأَرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾. فَهَكَذَا يُحِبُّ الْأَنْبِيَاءُ الْأَوْطَانَ: بِالدُّعَاءِ لَهَا بِالْأَمْنِ وَالنَّمَاءِ.

* وهـذا سـيدـنا يـوسـف عـلـيـه السـلام، لـمـا مـكـنـه اللـه فـي أـرـض مـصـر، لـم يـعـتـرـها مـعـنـما، بـلْ اعـتـرـها أـمـانـة. وـقـدـم أـرـقـى صـورـة لـخـدـمـة الـوـطـن بـالـإـتـقـان وـالـعـلـم، فـقـال: ﴿اجـعـلـنـي عـلـى خـرـائـن الـأـرـض إـلـيـ حـفـيـظ عـلـيـم﴾. "حـفـيـظ" عـلـى مـقـدـرات الـوـطـن، "عـلـيـم" بـكـيـفـيـة إـداـرـتـه.

* وهـذا سـيدـنا دـاـوـد عـلـيـه السـلام، يـعـلـمـنـا اللـه عـلـى يـدـه قـيـمة "الـصـنـعـة" وـ"الـإـتـقـان" فـيـقـول: ﴿وـعـلـمـنـا هـذـا صـنـعـة لـبـوـسـ لـكـم...﴾. فـالـصـنـعـة الـمـتـقـنـة هـبـة مـنـ اللـه وـطـرـيقـ لـعـمـارـة الـأـرـض.

وـلـقـدـ قـالـ نـبـيـنـا ﷺ: "إـنـ اللـه يـحـبـ إـذـا عـمـلـ أـحـدـكـم عـمـلاً أـنـ يـتـقـنـه" (رـوـاهـ البـيـهـقـيـ). وـهـا نـحـنـ الـيـوـمـ فـي مـصـرـ، نـشـهـدـ تـجـسـدـاً لـهـذـا الـمـعـنـى الـعـظـيمـ "الـإـتـقـان" وـ"الـإـعـمـارـ" فـي اـفـتـاحـ الـمـتـحـفـ الـمـصـرـيـ الـكـبـيرـ.

إـنـ هـذـا الصـرـحـ الـعـظـيمـ لـيـسـ مـجـرـدـ بـنـاءـ يـضـافـ، بـلـ هـوـ رـسـالـةـ تـقـولـ لـلـعـالـمـ إـنـ الـأـحـفـادـ يـكـمـلـونـ مـسـيـرـةـ الـأـجـدـادـ. إـذـا كـانـ الـأـجـدـادـ قـدـ أـتـقـنـوا "الـصـنـعـةـ" فـبـهـرـوـا بـهـا الـدـنـيـاـ، فـإـنـ وـاجـبـ الـأـحـفـادـ هـوـ "إـتـقـانـ الـحـفـاظـ" عـلـى هـذـا الـإـرـثـ وـتـقـديـمـهـ بـأـرـقـى صـورـةـ.

أـيـهـا السـادـةـ الـكـرـامـ: لـقـدـ دـعـانـا الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ إـلـيـ "الـإـعـتـبـارـ" بـتـارـيخـ الـأـمـمـ. قـالـ تـعـالـى: ﴿قـلـ سـيـرـوـا فـي الـأـرـضـ فـأـنـظـرـوـا...﴾. وـهـذـا الـمـتـحـفـ يـقـدـمـ لـنـا فـرـصـةـ لـلـنـظـرـ وـالـإـعـتـبـارـ. نـرـى فـيـهـ إـتـقـانـ الـصـانـعـ، وـدـقـةـ الـمـهـنـدـسـ، وـعـظـمـةـ التـحـطـيـطـ.

إـنـ هـذـا الـمـتـحـفـ هـوـ جـسـرـ يـرـبـطـ الـمـاضـيـ بـالـحـاضـرـ. وـحـبـنـا الـحـقـيـقـيـ لـوـطـنـنـا الـيـوـمـ يـتـمـثـلـ فـي أـنـ نـسـتـأـنـهـمـ "إـتـقـانـ" الـأـجـدـادـ، لـيـنـيـ بـهـ "مـسـتـقـبـلـ" الـأـحـفـادـ. وـبـالـلـهـ تـعـالـى التـوـفـيقـ.

٢٧. وـمـا النـصـرـ إـلـا مـنـ عـنـدـ اللـهـ

الـحـمـدـ لـلـهـ قـاصـمـ الـجـبـارـينـ، وـنـاصـرـ الـمـسـتـضـعـفـينـ، وـمـعـزـ أـوـلـيـائـهـ الـمـؤـمـنـينـ، وـالـصـلـاةـ وـالـسـلامـ عـلـى سـيـدـنـا مـحـمـدـ قـائـدـ الـغـرـ المـحـجـلـينـ، الـذـي أـرـسـى قـوـاعـدـ الـنـصـرـ وـالـتـمـكـينـ، وـعـلـى آلـهـ وـصـحـبـهـ وـمـنـ تـبـعـهـمـ بـإـحـسـانـ إـلـى يـوـمـ الدـيـنـ.

أـيـهـا السـادـةـ الـكـرـامـ، إـنـهـا الـحـقـيـقـةـ الـأـرـلـيـةـ، وـالـقـاعـدـةـ الرـبـانـيـةـ الـتـيـ يـجـبـ أـنـ تـسـتـقـرـ فـي قـلـبـ كـلـ مـؤـمـنـ؛ حـقـيقـةـ أـنـ النـصـرـ لـيـسـ بـالـعـدـدـ وـلـا بـالـعـدـدـ، وـلـيـسـ بـالـقـوـةـ الـمـادـيـةـ وـحـدـهـ، بـلـ هـوـ مـنـهـ مـنـ اللـهـ وـهـبـهـ، يـنـزـلـهـ عـلـى مـنـ يـشـاءـ مـنـ عـبـادـهـ وـفـقـ حـكـمـتـهـ وـعـدـلـهـ. يـقـوـلـ الـمـوـلـى عـزـ وـجـلـ فـي مـحـكـمـ الـتـنزـيلـ: ﴿وـمـا النـصـرـ إـلـا مـنـ عـنـدـ اللـهـ الـعـزـيزـ الـحـكـيمـ﴾ (آلـ عمرـانـ: ١٢٦). فـمـهـمـا بـلـغـتـ قـوـةـ الـأـمـمـ، وـمـهـمـا تـعـاـظـمـتـ أـسـبـابـهـ، فـإـنـ مـقـاتـيـخـ الـنـصـرـ تـبـقـيـ بـيـدـ اللـهـ وـحـدـهـ.

أـيـهـا السـادـةـ الـكـرـامـ: أـسـبـابـ الـنـصـرـ الـحـقـيـقـيـةـ

إِنَّ نُصْرَةَ اللَّهِ لَهَا أَسْبَابٌ وَعَوَامِلٌ، مَنْ أَخْذَ بِهَا حَقًّا لَهُ أَنْ يَسْتَمْطِرَ نَصْرَ السَّمَاءِ. وَلَقَدْ عَلِمَنَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ وَسُنْنَةُ نَبِيِّنَا ﷺ أَنَّ هُنَاكَ شُرُوطًا لِهَذَا النَّصْرِ، مِنْ أَهْمُّهَا:

* صِدْقُ الْإِيمَانِ وَالْتَّوْكِلُ عَلَى اللَّهِ: فَالْقَلْبُ الْمُعَلَّقُ بِاللَّهِ، الَّذِي يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّ الْقُوَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ، هُوَ قَلْبٌ لَا يُهْزَمُ.

* طَاعَةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاجْتِنَابُ الْمَغْصِبَةِ: إِنَّ أَعْظَمَ سَبِيلٍ لِلْهَزِيمَةِ هُوَ التَّفْرِيطُ فِي جَنْبِ اللَّهِ.

* وَحْدَةُ الصَّفَّ وَنَبْدُ الْفُرْقَةِ: مَا ضَعَفَتِ الْأُمَّةُ إِلَّا حِينَ تَشَتَّتَ أَبْناؤُهَا، وَمَا تَغلَّبَ عَلَيْهَا عَدُوٌّ إِلَّا حِينَ دَبَّ فِيهَا التَّرَاغُ.

* الإِعْدَادُ الْمَادِيُّ الْمُمْسِطَاطَعُ: فَالإِسْلَامُ دِينُ الْوَاقِعَةِ، لَا يَدْعُونَ إِلَى التَّوْكِلِ الْمُنْفَصِلِ عَنِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: تَجَلَّيَاتُ النَّصْرِ فِي سِيرَةِ الْمُصْطَفَى وَالصَّالِحِينَ وَلِكِيْ لا يَيْظَلُ الْكَلَامُ نَظَرِيًّا، فَإِنَّ تَارِيَخَنَا يَرْجُحُ بِالْمَوَاقِفِ الَّتِي تَجَلَّ فِيهَا نَصْرُ اللَّهِ كَفَلَقِ الصُّبْحِ:

* يَوْمَ بَدِرٍ... حِينَ اسْتَرْزَلَ الدُّعَاءُ جُنُودَ السَّمَاءِ: هَا هُوَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْفُ فِي قِلَّةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، مُسْتَقْبِلُ الْقِبْلَةِ، رَافِعًا يَدِيهِ الشَّرِيفَتَيْنِ حَتَّى سَقَطَ رِدَاؤُهُ، يُتَاجِي رَبَّهُ بِقَلْبٍ مُؤْقِنٍ وَيَقُولُ: "اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتِنِي، اللَّهُمَّ إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدُ فِي الْأَرْضِ". فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ حَتَّى جَاءَهُ الْبُشْرَى وَنَزَّلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغْيِثُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجِابَ لَكُمْ أَيْ مُمْدُكُمْ بِالْفِلِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ (الأنفال: ٩). فَلَمْ يَكُنِ النَّصْرُ بِعَدِيهِمْ، بَلْ بِصِدْقِ تَوْجُّهِهِمْ وَإِيمَانِ قَائِدِهِمْ.

* سَيِّدُنَا سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ... وَمَقَاتِلُ الْقَادِيسَيَّةِ: وَفِي عَهْدِ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حِينَ جَهَّزَ جَيْشَ الْقَادِيسَيَّةِ لِقِتَالِ الْفُرْسِ، وَكَانُوا أَصْعَافَ الْمُسْلِمِينَ عَدَدًا وَعَدَدَهُ، كَتَبَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى قَائِدِ الْجَيْشِ سَيِّدِنَا سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَصِيَّةً خَالِدَةً قَالَ فِيهَا: "فَإِنِّي أَمْرُكَ وَمَنْ مَعَكَ مِنْ الْأَجْنَادِ بِتَقْوَى اللَّهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّ تَقْوَى اللَّهِ أَفْضَلُ الْعُدَّةِ عَلَى الْعَدُوِّ، وَأَفْوَى الْمَكِيدَةِ فِي الْحَرْبِ". فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ الْجُنُدُ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأَفْبَلُوا عَلَى الشَّهَادَةِ بِصِدْقٍ، وَلَجَأَ قَائِدُهُمْ إِلَى اللَّهِ بِالْدُّعَاءِ، أَنْزَلَ اللَّهُ نَصْرَهُ، وَفُتُحَتْ عَلَى أَيْدِيهِمْ بِلَادُ فَارِسَ، لِيَعْلَمَ الْعَالَمُونَ أَنَّ جُنُودَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ: نَصْرٌ أَكْتُوَبَرٌ تَجْسِيدٌ لِلْمَعَانِي الرَّبَّانِيَّةِ

وَلَعْلَ مِنْ أَبْرَزِ الْأَمْثَلَةِ فِي تَارِيخِنَا الْحَدِيثِ، الَّتِي تَجَلَّتْ فِيهَا هَذِهِ السُّنْنُ الْإِلَهِيَّةُ، هُوَ نَصْرٌ أَكْتُوبَرَ الْمَجِيدُ. لَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ مُجَرَّدًا انتِصارًا عَسْكَرِيًّا، بَلْ كَانَ لَوْحَةً إِيمَانِيَّةً اجْتَمَعَتْ فِيهَا أَسْبَابُ النَّصْرِ الْأَرْضِيَّةِ وَالسَّماوِيَّةِ.

لَقَدْ أَخَذَ قَادْتُنَا وَجَنُودُنَا بِاسْبَابِ الْقُوَّةِ الْمَادِيَّةِ؛ فَخَطَّطُوا بِأَعْلَى دَرَجَاتِ الدَّفَقَةِ وَالْإِلْتَقَانِ، وَأَعْدُوا الْعُدَّةَ بِكُلِّ مَا أُوتُوا مِنْ حِيلَةٍ وَوَسِيلَةٍ. وَلِكِنَّ السَّرَّ الْأَعْظَمَ كَانَ فِي الرُّوحِ الَّتِي سَرَّتْ فِي عُرُوقِ الْجَيْشِ؛ رُوحُ الإِيمَانِ بِاللَّهِ. كَانَتْ صَيْحَةُ "اللَّهُ أَكْبَرُ" هِيَ السَّلَاحُ الَّذِي زَرَّلَ قُلُوبَ الْأَعْدَاءِ وَحَطَّمَ أَسْطُوْرَةَ جَيْشِهِمُ الَّذِي لَا يُقْهَرُ.

أَيُّهَا السَّادَةُ الْكِرَامُ: طَرِيقُنَا إِلَى نَصْرٍ جَدِيدٍ: إِنَّ قِصَّةَ النَّصْرِ لَا تَتَغَيِّرُ، وَقَوَاعِينَهَا ثَابِتَةٌ. فَإِذَا أَرَدْنَا لِأُمَّتِنَا عِزًّا وَتَمْكِيَّنًا، فَلَيْسَ لَنَا مِنْ طَرِيقٍ سِوَى الْعَوْدَةِ الصَّادِقَةِ إِلَى اللَّهِ، وَتَحْقِيقِ شُرُوطِ النَّصْرِ الَّتِي أَرْسَاهَا. عَلَيْنَا أَنْ نُعِدَّ قُوَّةَ الإِيمَانِ فِي الْقُلُوبِ، مَعَ قُوَّةِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فِي الْوَاقِعِ. فَلَنَتَدَكَّرْ ذَائِمًا أَنَّ النَّصْرَ الْحَقِيقِيَّ يَبْدُأُ مِنَ الْاِنْتِصَارِ عَلَى شَهَوَاتِ النَّفْسِ وَأَهْوَائِهَا، فَمَنْ نَصَرَ اللَّهَ فِي نَفْسِهِ، نَصَرَهُ اللَّهُ عَلَى عَدُوِّهِ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ.

٢٨. الإِسْلَامُ وَاحْتِرَامُ خُصُوصِيَّةِ الْآخَرِينَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَلِكِ الْقُدُوسِ السَّلَامُ، الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خُلُقَهُ عَلَى الْكَمَالِ وَعَلَى التَّمَامِ، رَفَعَ السَّمَاءَ بِلَا عَمَدٍ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ. وَالصَّلَادَهُ وَالسَّلَامُ الْأَتَمَانُ الْأَكْمَلَانُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، الْفَاتِحِ لِمَا أَغْلَقَ، وَالْخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، نَاصِرُ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، وَالْهَادِي إِلَى صِرَاطِكَ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَلَى أَلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَمِقْدَارِهِ الْعَظِيمِ.

مَوْلَايَ صَلَّى وَسَلَّمَ دَائِمًا أَبَدًا عَلَى حَبِّيْكَ خَيْرُ الْخَلْقِ كُلُّهُمْ. يَا رَبِّ بِالْمُصْنُوفَى بِلْعُ مَقَاصِدَنَا، وَاغْفِرْ لَنَا مَا مَضَى يَا وَاسِعَ الْكَرَمِ.

وَبَعْدُ؛

فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْقِيَمِ الَّتِي حَرَصَ الْإِسْلَامُ عَلَى بَيْهَا بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ قَدِيمًا وَحَدِيثًا، قِيمَةُ "احْتِرَامُ خُصُوصِيَّةِ الْآخَرِينَ".

النَّاصِيْلُ الْفُرْقَانِيُّ لِلْخُصُوصِيَّةِ:

نَجِدُ قَاعِدَةً عَظِيمَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تَحْتَنَا عَلَى ذَلِكَ، حَيْثُ يَقُولُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي سُورَةِ الْحُجُّرَاتِ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظُّنُونِ إِنَّ بَعْضَ الظُّنُونِ إِثْمٌ وَلَا تَجْسَسُوا وَلَا يَغْتَبُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا...).

وَلَمْ يَقِفِ الْأَمْرُ عِنْ النَّهْيِ عَنِ التَّجَسُّسِ الْعَامِ، بَلْ حَدَّ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ أَوْقَاتًا خَاصَّةً لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ عَلَى أَحَدٍ فِيهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، حَتَّى دَأَبَ الْبَيْتُ الْوَاحِدُ، فَقَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْتُّورِ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنُكُمُ الَّذِينَ مَلَكُتُ أَيْمَانَكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَاتٍ هِنَّ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَجِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثَ عَوْرَاتٍ لَكُمْ...).

فَأَصَّلَ لَنَا رَبُّنَا تَبَارُكَ وَتَعَالَى مِنْ خَلَالِ هَذِهِ الْآيَةِ قِيمَةَ احْتِرَامِ الْخُصُوصِيَّةِ، بَلْ وَجَعَلَ أَوْقَاتًا لَا يَبْغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَزُورَ أَحَدًا فِيهَا مِنْ بَابِ الْأَدَبِ.

آدَابُ الرِّيَارَةِ وَالاسْتِئْذَانِ:

وَجَعَلَ رَبُّنَا تَبَارُكَ وَتَعَالَى أَسَاسِيَّاتٍ وَآدَابًا يَبْغِي احْتِرَامُهَا فِي التَّعَامِلِ مَعَ الْآخَرِينَ:

* إِثْيَانُ الْبَيْوَتِ مِنْ أَبْوَابِهَا: فَلَا يَأْتِي الْإِنْسَانُ بَيْتَ أَحَدٍ مِنْ ظَهْرِهِ أَوْ يَتَأَصَّصُ عَلَيْهِ، قَالَ تَعَالَى: (وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبَيْوَتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مِنْ اتِّقَانِهِ وَأَتُوا الْبَيْوَتَ مِنْ أَبْوَابِهَا...) (الْبَقَرَةَ).

* أَدَبُ الْاسْتِئْذَانِ: وَهُوَ بَابُ أَصِيلٍ لِاحْتِرَامِ الْخُصُوصِيَّةِ النَّاسِ، قَالَ تَعَالَى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوهَا وَتُسْلِمُوهَا عَلَى أَهْلِهَا... فَإِنْ لَمْ تَجِدُوهَا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوهَا فَأَرْجِعُوهَا هُوَ أَرْكَى لَكُمْ...) (الْتُّورَ).

النَّهْيُ النَّبَوِيُّ عَنْ تَتَّبِعِ الْعَوْرَاتِ:

بَلْ وَنَهَى سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عِدَّةِ أَحَادِيثٍ عَنْ تَتَّبِعِ عَوْرَاتِ النَّاسِ وَاحْتِرَاقِ الْخُصُوصِيَّاتِهِمْ، وَجَعَلَ فِيهَا عِقَابًا عَظِيمًا وَعَذَابًا مُهِينًا.

* رَوَى التَّرْمِذِيُّ عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الإِيمَانَ قَلْبَهُ، لَا تَعْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ تَتَّبَعَ عَوْرَةً أَخِيهِ الْمُسْلِمِ، تَتَّبَعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَّبَعَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، يَفْسَحُهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ".

* وَمِنَ الْوَصَائِيَا التَّاجِمِعَةِ لِسَيِّدِنَا مُعاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ لَهُ ﷺ: "إِنَّكَ إِنِّي اتَّبَعْتَ عَوْرَاتَ النَّاسِ؛ أَفْسَدْتَهُمْ، أَوْ كَدْتَ أَنْ تُفْسِدَهُمْ" (رَوَاهُ أَبُو دَاؤِدَ).

حُقُوقُ الْجَارِ وَفَضْلُ السَّرِّ:

فَإِنَّنَا نَدْعُو السَّادَةَ الْكِرَامَ أَنْ يَحْرِصُوا عَلَى احْتِرَامِ الْخُصُوصِيَّةِ النَّاسِ، خَاصَّةً الْجِيرَانَ. فَلَا يَتَجَسَّسُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ حَذَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ: "وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ، وَاللَّهِ لَا يُؤْمِنُ. قَالُوا: وَمَا ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: جَارٌ لَا يَأْمُنُ جَارُهُ بِوَاقْتِهِ. قَالُوا: وَمَا بِوَاقْتِهِ؟ قَالَ: شَرُّهُ". (رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ). وَمِنْ ضِمْنِ هَذِهِ الْبَوَائِقِ عَدَمُ احْتِرَامِ الْخُصُوصِيَّةِ.

فَاحْرُصُوا إِلَيْهَا السَّادَةُ الْكَرَامُ عَلَى هَذَا الْخُلُقِ حَتَّى لَا تَدْخُلُوا تَحْتَ هَذَا الْوَعْدِ. إِيَّاكُمْ وَالْتَّجَسُّسَ، إِيَّاكُمْ وَكَشْفَ أَسْتَارِ النَّاسِ.

فَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ... وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ".

أَسْأَلُ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِاسْمِهِ الْأَعْظَمِ أَنْ يَسْتُرَنَا بِسْتُرِهِ الْجَمِيلِ، وَأَنْ يَحْفَظَ أَسْرَارَنَا، وَأَنْ يُوْقَنَّا وَإِيَّاكُمْ لِكُلِّ خَيْرٍ، وَأَنْ يُدِيمَ عَلَى بَلْدَنَا مِصْرَ نِعْمَةَ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَالاستِغْرَارِ، إِنَّهُ وَلِيُّ ذَلِكَ وَمَوْلَاهُ. وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوْفِيقُ وَالسَّدَادُ.

٢٩. تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يُلْقَوْنَهُ سَلَامٌ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَقِينَ، وَلَا عِوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ. وَأَشْهُدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، شَهَادَةً تَذَكَّرُنَا عِنْ السُّؤَالِ حُجَّتَنَا، وَتُبَيَّسِرُ عَلَى الْصَّرَاطِ مُرْوَنَا، وَتَرْوِيَنَا يَوْمَ الْعَطْشِ الْأَكْبَرِ مِنْ حَوْضِ نَبِيِّنَا ﷺ. وَنَشَهُدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا وَعَظِيمَنَا وَقَائِدَنَا وَفُؤُونَا وَأَسْتَاذَنَا وَفُرَّةَ أَعْيُنَا وَمُخْرَجَنَا مِنَ الظَّلَمَاتِ إِلَى النُّورِ سَيِّدَنَا مُحَمَّداً ﷺ، شَرَحَ اللَّهُ صَدَرَهُ وَرَفَعَ فِي الْعَالَمِينَ ذِكْرَهُ، وَصَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ أَمَرَنَا نَحْنُ الْمُؤْمِنِينَ بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا).

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الْفَاتِحِ لِمَا أَغْلَقَ، وَالخَاتِمِ لِمَا سَبَقَ، نَاصِرِ الْحَقِّ بِالْحَقِّ، وَالْهَادِي إِلَى صَرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَعَلَى آلِهِ حَقَّ قَدْرِهِ وَمِقْدَارِهِ الْعَظِيمِ. مَوْلَايَ صَلِّ وَسَلِّمْ دَائِمًا أَبَدًا عَلَى حَبِيبِكَ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ.

وَبَعْدُ : فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ النِّعَمِ الَّتِي يَمْتَنِنُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ نِعْمَةُ الْأَمَانِ وَالسَّلَامِ وَالَّذِي يَتَتَّبِعُ وَيَتَدَبَّرُ آيَاتِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَجِدُ أَنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى ذَكْرُ السَّلَامِ وَالْأَمَانِ فِي مَوَاضِعِ عَدِيدَةٍ:

* اسْمُ اللَّهِ: فَجَعَلَ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى السَّلَامَ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ الْحُسْنَى فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَمِّنُ).

* اسْمُ الْجَنَّةِ: وَجَعَلَ السَّلَامَ اسْمًا مِنْ أَسْمَاءِ الْجَنَّةِ فَقَالَ تَعَالَى: (لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

* تَحِيَّةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: وَجَعَلَ تَحِيَّةً أَهْلِ الْجَنَّةِ السَّلَامَ فَقَالَ تَعَالَى: (تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يُلْقَوْنَهُ سَلَامٌ) وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا). بَلْ إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يُسَاقُونَ إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ: (وَسَيِّقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى

الْجَنَّةَ زُمِرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَرَّنَتْهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْشُمْ فَادْخُلُوهَا حَالِدِينَ).

السَّلَامُ فِي السُّنَّةِ النَّبُوَيَّةِ: وَالَّذِي يُنَظِّرُ فِي سُنَّةِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَحْدُثُ أَنَّ أَوَّلَ حِطَابٍ لِلرَّسُولِ ﷺ فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ كَانَ تَأْسِيسًا لِلسَّلَامِ. فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: "أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلَامَ، وَأَطْعُمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، ثَدُّلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ". (رَوَاهُ التَّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ).

أَجْرُ السَّلَامِ: بَلْ وَرَغْبَ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّاحَابَةِ الْكَرَامَ فِي السَّلَامِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ السَّلَامَ وَلَوْ بِالْكَلْمَةِ لَهُ أَجْرٌ مَحْسُوبٌ: فَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، ثُمَّ جَلَسَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "عَشْرٌ"، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: "عِشْرُونَ"، ثُمَّ جَاءَ آخَرُ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، فَرَدَّ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ، فَقَالَ: "ثَلَاثُونَ". (رَوَاهُ أَبُو دَاؤَدَ وَالْتَّرْمِذِيُّ).

بَلْ وَجْبِرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ حِينَمَا يَلْقَى سَيِّدِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَبْدأُ بِالسَّلَامِ، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "هَذَا جَبِرِيلٌ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلَامَ"، قَالَتْ: قُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. (مُتَقَرَّبٌ عَلَيْهِ).

السَّلَامُ حَصْنٌ مِنَ الْقَطِيعَةِ: السَّلَامُ قُرْبَةٌ وَسُنَّةٌ وَمَشْرُوعٌ لِلْمُسْلِمِينَ رجَالًا وَنِسَاءً؛ لِمَا فِيهِ مِنَ الْمَصَالِحِ الْكَثِيرَةِ، وَجَلْبِ الْمَوَدَّةِ وَالثَّالِفِ، وَالْحَذَرِ مِنَ الشَّحَنَاءِ وَالْبَغْضَاءِ؛ وَلِهَذَا حُرِّمَ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. يَقُولُ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرْ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثٍ، يُلْتَقِيَانِ فَيُعَرَّضُ هَذَا وَخِيرُهُمَا الَّذِي يَبْدأُ بِالسَّلَامِ".

فَالسَّلَامُ هُوَ الَّذِي يَقْطَعُ الْهَجْرَ إِذَا كَانَتِ الْخُصُومَةُ دُنْيَوِيَّةً، أَمَّا إِذَا كَانَ الْهَجْرُ لِلَّهِ مِنْ أَجْلِ مَعْصِيَةِ ظَاهِرَةٍ، فَهَذَا لَا يَتَقَيَّدُ بِثَلَاثٍ بَلْ حَتَّىٰ يَتُوبَ، كَمَا حَدَّثَ مَعَ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا فِي غَرْوَةِ تَبُوكٍ.

آدَابُ السَّلَامِ: وَالسَّلَامُ آدَابٌ عَلَمَنَا إِيَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ لِتَنْظِيمِ الْحَيَاةِ: "الْإِسْلَامُ الصَّغِيرُ عَلَى الْكَبِيرِ، وَالْمَارُ عَلَى الْفَاعِدِ، وَالرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِيِّ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ". فَهَذِهِ آدَابٌ شَرِيعَةٌ نُورَتُ التَّوَاضُعُ وَالْتَّوْقِيرُ.

وَمِنَ الْآدَابِ الْعَظِيمَةِ أَيْضًا: التَّسْلِيمُ عَلَى الْأَهْلِ عِنْدَ دُخُولِ الْبَيْتِ، قَالَ لِلنَّاسِ: "يَا بُنَيَّ، إِذَا دَخَلْتَ عَلَى أَهْلِكَ فَسَلِّمْ يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِ بَيْتِكَ".

فَهِيَ دَعْوَةٌ إِلَى السَّلَامِ، فَاجْعَلُوا السَّلَامَ يَمْلأُ حَيَاتَكُمْ كُلَّهَا: بِيُوْتَكُمْ، وَشَوارِعَكُمْ، وَمَسَاجِدَكُمْ، وَمَدَارِسَكُمْ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ.

سَأَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِاسْمَائِهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعَلِيَّ أَنْ يُدِيمَ عَلَى بَلَدِنَا الْحَيْيَةَ مِصرَ
جَيْشِهَا وَشَعْرِهَا بِالْأَمْنِ وَالْأَمَانِ وَالسَّلَامِ وَالاَطْمَانِ.

خَاتِمَةُ الْكِتَابِ

سَأَلَ اللَّهُ الْعَلِيَّ الْقَدِيرَ أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ نُورًا يَمْشِي بَيْنَ النَّاسِ، وَأَنْ يَكْتُبَ لَهَا
الْقَبُولَ فِي الْأَرْضِ وَفِي السَّمَاءِ، وَأَنْ يَنْقَعَ بِهَا كَاتِبَهَا وَقَارِئَهَا وَنَاسِرَهَا يَوْمًا لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ
إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ وَبَارَكَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

(تَمَ بِحَمْدِ اللَّهِ)